

الأدب الإسلامي

الأستاذ الدكتور
صباح نوري المرزوك

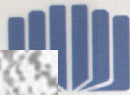


www.darsafa.net



مؤسسة دار الصادق الثقافية
طبع . نشر . توزيع

الأدب الإسلامي



مؤسسة دار الصفا

طبع، نشر

العراق - بابل 33129

liq@yahoo.com



7 248802

دار صفا للطباعة والنشر والتوزيع

الملكة الأردنية الهاشمية - عمان - شارع الملك حسين
مجمع الفحيح التجاري - هاتف : 962 6 4611169
تلفاكس: 962 6 4612190 صرب 922762 عمان 11192 الأردن

E-mail: safa@darsafa.net www.darsafa.net



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ

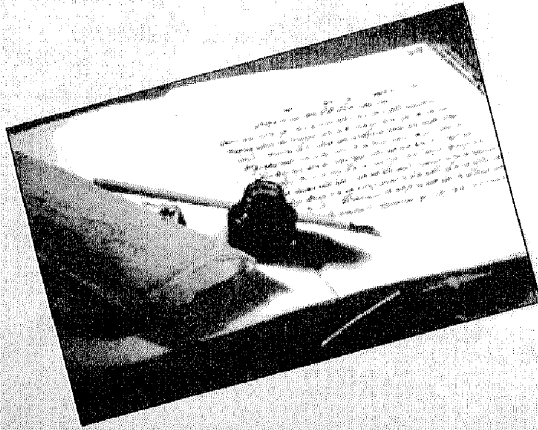
إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ



الأدب الإسلامي

الأدب الإسلامي



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
التوزيع

الأستاذ الدكتور

صباح نوري المرزوك

892.709

M39395

الطبعة الأولى

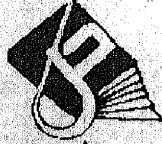
2014م - 1435هـ



دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان

١١٧٧٦٥

رقم التسجيل



دار صفاء للنشر والتوزيع

الأدب الإسلامي

أ.د. صباح نوري المرزوك

الواصفات:

الاسلام // الأدب العربي

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2012/12/4523)

ردمك: ISBN 978-9957-24-880-2

عمان - شارع الملك حسين

مجمع الفحيص التجاري - تلفاكس +962 6 4612190

هاتف: +962 6 4611169 ص. ب 922762 عمان - 11192 الأردن

DAR SAFA Publishing - Distributing

Telefax: +962 6 4612190- Tel: +962 6 4611169

P.O.Box: 922762 Amman 11192- Jordan

E-mail: safa@darsafa.net

www.darsafa.net

جميع حقوق الطبع محفوظة

ALL RIGHTS RESERVED

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من الناشر.

All rights Reserved. No part of this book may be reproduced, Stored in a retrieval system. Or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.

الفهرس

7	المقدمة
11	أثر الإسلام في حياة العرب
13	أثره في حياتهم الدينية:
13	أثره في حياتهم الاجتماعية:
14	أثره في حياتهم السياسية:
15	أثره في حياتهم العقلية:
16	أثر اللغة العربية:
23	الشعر في رحاب الدعوة الإسلامية
34	الشعر في زمن الرسول ؟
37	أثر القرآن الكريم والحديث الشريف
49	موقف الإسلام من الشعر
51	موقف الرسول ؟ من الشعر
69	الرسول والاستماع للشعر
74	موقف القرآن الكريم من الشعر
84	خصائص أسلوب القرآن
90	خصائص البلاغة النبوية
93	ضعف الشعر
117	ضياع الشعر الإسلامي

122	الشعراء المخضرمون
138	موضوعات الشعر
141	حسان بن ثابت
147	كعب بن زهير
155	الخطبة
158	لبيد بن ربيعة
164	شعر الفتوحات الإسلامية
170	الخطابة
175	خطبة الرسول محمد ﷺ في حجة الوداع
177	علي بن أبي طالب ()
182	عبقريّة الإمام:
184	خطبة الإمام علي () في أصحابه بالكوفة
189	الكتابة والرسائل
191	رسالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري

المقدمة

يعد عصر صدر الإسلام بداية لتفتح حضارة ومجد ستعيشهما الأمة العربية على مدى تاريخها الطويل، وهذه الأمة التي كرمها الله سبحانه وتعالى بان نزل القرآن الكريم على النبي العربي محمد (ص) بلغتها، وعلى يديه انتشر الإسلام في الأمم كافة وكانت الرسالة المحمدية تؤدي دورها على اتم وجه في نشر مبادئ الدين الإسلامي الحنيف وتتابع هذه العصر بعد وفاة الرسول الكريم (ص) بخلافة الخلفاء الراشدين الذين واصلوا المسيرة في تحقيق انتصارات رائعة في المشرق والمغرب، ثم تأتي الدولة الاموية لتأخذ على عاتقها مهمة اكمال الفتوحات الإسلامية لتصل الى حدود الصين شرقاً وشمالى افريقيا والمغرب الأقصى وبلاد الاندلس غرباً في جو عربي ناصع يتنفس فيه المسلم روح الاسلام ومعانيه، ورافق هذا أدب عربي مكتوب ومروي في هيئة شعر او نثر قوامها الشاعر او الناثر العربي الذي نهّد لأداء مهمته في اذكاء تلك الروح بكل ما يملك في شتى ميادين الفن والابداع متتوالاً إغراض الشعر العربي فنون النثر العربي.

وقد تعددت تسميات عصر صدر الاسلام فهو عصر الرسالة لدى جماعة وعصر النبوة لدى الآخرين وهو العصر المحمدي وعصر الدعوة الاسلامية عند غيرهم، وفترة الخلفاء الراشدين سميت عصر الخلافة الراشدة او عصر الخلفاء الراشدين.

وقد تم تأليف هذا الكتاب وفقاً لمفردات منهج الفصل الرابع من مناهج السنة الثانية لطلبة قسم اللغة العربية في كليات التربية الاساسية في العراق ليكون بين متناول أيدي السادة التدريسيين الكرام وأبنائنا الطلبة ليلبي حاجتهم في فهم وتتبع احداث واعلام هذين العصرين وعلى ضوء ذلك تم اعطاء النصوص الادبية سواء أكانت شعرية ام نثرية اهمية قصوى في ضبطها بالشكل واراد ان يقدم لها معنيين لكل نص: معنى مفردا يقوم على الفهم المباشر، ومعنى إجماليا

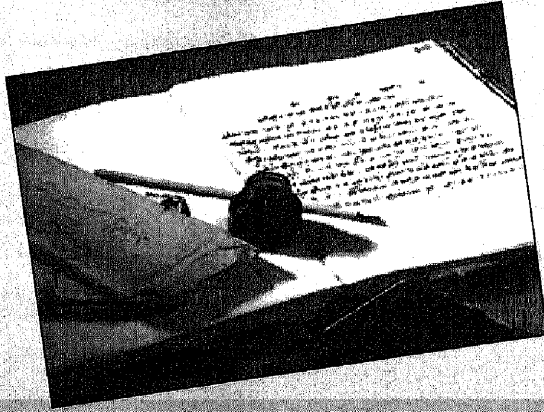
يبرز من التطبيق الفني لصنوف علوم البلاغة وضبط العروض ومعرفة المعاني والاساليب والايحاءات.

ان المادة الموجودة في ثنايا هذا الكتاب موزعة على خمسة عشر أسبوعاً دراسياً ويمكن للتدريسي كلما تسنى له ان يضيف ما يضيف لما يرى فيه انه في حاجة إلى المزيد من المعلومات المعرفية وخاصة تلك تتعلق بإبراز المعاني الانسانية التي أستطاع الشعر في هذه الفترة بيانها وإيضاحها في وقت كان الشاعر يشعر فيه بالزهو بانه حامل لرسالة وعليه ان يؤديها ويوضح دواعي الخير ويدعو الى نبذ الشر بما يتناسب او ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب وما أثر عنهم.

أرجو مخلصاً ان يلقي هذا الكتاب عين الرضا والقبول والله من وراء القصد.

المؤلف

الأدب الإسلامي



1

أثر الإسلام في حياة العرب

ان القبائل العربية لم تكن جميعها يهودية او نصرانية بل كان قسم منها ما زال وثنياً ، وان هذه الوثنية التي كانت عليها غالبية العرب بدأت تضعف في الفترة التي عقيبت الإسلام بقليل ، ونجد في ذلك ظهور جماعة أطلق عليهم (الحنفاء) ، مع ظهور دعاة من النصارى يهاجمون هذه الديانة وينالون منها ويحثون الناس على التخلي عنها ، فقد كان العرب في أواخر العصر الجاهلي أو عصر ما قبل الاسلام على أبواب يقظة عقلية وروحية وكانوا في ريعان نهضة ادبية ، وكل هذه الامور كان من شأنها أن هزت اركان بحيث كان تفوضها ، وعليه فقد قامت دعوة النبي محمد ﷺ في تلك القبائل العربية لتعتد فيما بعد وتشمل مختلف انحاء الجزيرة العربية.

لقد دعا النبي محمد ﷺ الناس الى عبادة الله الواحد الاحد ضارب بالقبليات عرض الحائط داعياً الى نشر الوحدة بين صفوف الناس والى انهاء الخصومات والانطواء تحت راية واحدة تظللهم جميعاً هي راية الاسلام ، راية الدين الجديد ، وكان لظهور القرآن الكريم أن احدث انقلاباً جذرياً في حياة العرب شمل جميع الحقول ومختلف الميادين.

لذلك قام النبي محمد ﷺ بمهاجمة الكعبة معقل الوثنية في ذلك الحيز فحطم الاصنام في معابدها وبفضل الدين الجديد تم القضاء على بعض المعتقدات الجاهلية التي كانت سائدة كزجر الطير والتنبؤ بالغيب ليتفرغوا لعبادة اله واحد لا شريك له (واعبدوا الله ولا تشركوا به أحداً).

وفرض الإسلام على المسلمين الشهادة- شهادة ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ﷺ ، والصلاة والصوم والزكاة والحج التي من شأنها تهذيب شخصية الانسان ، كما وعد الصالحين بالجنة وهياً نار جهنم للكافرين من البشر. وجعل الإسلام من القبائل المتفرقة المتنازعة امة واحدة فتحوّلت القبائل العربية الى رابطة

الامة بدلا من رابطة العصبية التي كانت تسود القبائل قبل الإسلام والتي كان قوامها رابطة الدم والزهو والعرقى وهذه الجامعة الروحية التي تربط بين أبناء الأمة أعدتها تعاليم القرآن الربانية بأحكام ختلت لها الرسوخ في نفوس المسلمين جميعا فأزالت الفروق بين الطبقات، عند المفهوم العسكري السياسي فقد تحول مفهوم القتال من أجل القبيلة الى جهاد مقدس، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. ومن الناحية الاجتماعية فقد رسم الإسلام سبيل المعيشة والكسب وحارب الكسب بطريقة شن الغارات والاغتصاب وفتحت أبواباً جديدة للرزق الحلال بالهجرة الى فتح الأمصار والدعوة الى دين الله واغتنام الفياء، وحارب الإسلام الآفات الموجودة في المجتمع قبل الإسلام مثل الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر ونهى عن الكذب والغش والنفاق، وحث على مكارم الأخلاق ودعا لتنظيم الحياة الخاصة وتحديد الموارث ومن ثم تحقيق الإسلام لكل المجتمع الحماية والمنفعة وتبعد عنه كل ضرر او ضعف. وقد رأينا ان الانانية الفردية قد ذابت في بوتقة الجماعة العامة وقل التفاخر والتفاخر القبائلي والخصومات القبلية فقد ورد (انما المؤمنون اخوة) و(اكرمكم عند الله اتقاكم) و (الناس سواسية كأسنان المشط) و (لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى)، وانتهت عادات أخذ الثار وأد البنات وارباء الميسر وبذلك تحول الانسان العربي من انسان يعيش لنفسه الى انسان يعيش في سبيل الاخوين، وبذلك يكون الاسلام بتعاليمه الربانية قد أحدث اثرا واضحا في المجتمع اذ خلق كياناً متيناً للإنسان العربي فارتقى به روحياً وعقلياً واجتماعياً وانسانياً ودفعه الى السمو الكامل الذي يحقق انسانية الحق، وبذلك يظهر فضل الاسلام على المرء، وبالتالي على حياته وسلوكه ومنها الى شعره وأدبه مما نفيض به روحه وتسمو به معانيه.

أثره في حياتهم الدينية:

غير الإسلام حياة العرب الدينية تغييراً ضخماً كبيراً لا يماثله تغيير آخر، فأبطل الوثنية والشرك، وقضى على عبادة الأوثان والأصنام، وحارب العبادات الزائفة كعبادة النار والنجوم والكواكب والملائكة، ونفى أن يكون هناك شركاء لله في العبادة، أو أن يكون هناك وسطاء بين العبد وربّه، ودعا إلى التوحيد المطلق، والإيمان الحق، والإسلام الخالص، وإلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ودعا العرب وغيرهم إلى الإيمان بهذا الدين الإلهي العظيم، ونبذ ما هم عليه من ضلال وباطل ووهم، ومن تحريف لشعائر الله وكتبه، ولعقيدة التوحيد الصافية الخالصة.

وحارب الإسلام التقليد وذم المقلدين، وحرر الإنسان من الأوهام والخرافات والأساطير والعقائد الزائفة والشرائع الزائفة، والأديان الباطلة.

وبذلك صار الدين لله وحده لا شريك له، وصارت العبادة خالصة لله رب العالمين، سبحانه قيم السموات والأرض ومن فيهن، بيده الخير والشر، وهو على كل شيء قدير.

أثره في حياتهم الاجتماعية:

غير الإسلام حياة الجاهليين تغييراً شاملاً تاماً غير منقوص، فأبطل النظام القبلي، وحياة المجتمع القبلية، وأزال عن العربي نفوذ رئيس القبيلة الظالم، وجعل المجتمع كله وحدة واحدة يسوده الحب والتعاون والإخاء، بعد أن كان يسوده الشقاق والخصام والخلاف، وأعطى الفرد كل حقوقه المشروعة في مقابل ما فرض عليه من مسؤوليات وواجبات، وحرر الرقيق والخادم والمرأة، وأعطاهم حريتهم كاملة غير منقوصة، ونظم الأسرة وأقامها على أساس متين من الحب والخير والتعاون، وشرع لها الكثير من النظم الحكيمة الصالحة لكل زمان ومكان، وقضى على عوامل الفرقة في المجتمع، وعلى الحروب بين الناس، وألغى

الامتيازات القبلية والعنصرية، وجعل الناس جميعاً سواسية أمام الله والقانون وهم سواء كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض، ولا لشريف على وضيع، ولا لعظيم على فقير، ولا لرئيس على مرؤوس، فالجميع عباد الله، والجميع إخوان في دين الله، وهم بالإسلام في خير عميم، وفضل عظيم، وسلام دائم، وإخاء شامل، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

وهكذا أعطى الإسلام الإنسان حريته واستقلاله الفكري والمالي والاجتماعي ورفع كرمته ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وجعله خليفة الله في الأرض، يعمرها ويمحو منها الفوضى والجهل والجمود والظلام، بما وهبه الله من عقل، وما بعث إليه من دين، وما حث عليه من علم، وأوجب على المسلم طاعة أولي الأمر، والعمل بدين الله في السير وراء الحاكم المسلم العادل، الذي يحكم بما أمر الله، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس، وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد في وحدة المجتمع الإسلامي وقوته كالزكاة والصدقة والإحسان وصلاة الجماعة والحج، وحرّم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم، وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة وعصبية الجاهلية، واستبدل بها دعوة الدين، وأباح الطيبات من الرزق ومن وسائل المعيشة الشريفة التي تتفق مع الإسلام الكريم.

أثره في حياتهم السياسية؛

وأثر الإسلام في حياة العرب السياسية واضح للعيان لا يحتاج إلى بيان أو برهان:

1- فقد كسب الإسلام للعرب وحدتهم السياسية الكاملة فاستقلت بلاد

العرب استقلالاً كاملاً، بعد ان كانت أطرافها تخضع لنفوذ الأمم القوية المجاورة لها، فكانت البحرين والحيرة تخضعان لنفوذ الفرس، واليمن لنفوذ الحبشة والفرس، وعرب غسان لنفوذ الروم، فذهبت هذه التبعية إلى غير رجعة، وتجمعت القبائل والأطراف العربية والقرى والمدن وبلاد الصحراء في وحدة سياسية شاملة.

2- وصار العرب يخضعون لحاكم واحد هو رسول الله ثم خلفاؤه من بعده يحكمهم بما أنزل الله فتجمعت الأهواء المتفرقة، وتآلفت القلوب المتنافرة وتوحدت النظم المتباينة في جزيرة العرب، وأصبحت لهم وحدة سياسية واجتماعية كاملة، فوق وحدتهم في الدم والعنصر واللسان والدين.

3- وفتح المسلمون كثيراً من البلاد والأمم والشعوب وحكموها، فعود المسلمون على فن الحكم وصار منهم الأمراء والولاة والقواد والقضاة والجنود، وسجلوا الكثير من مجد يعجب به الدهر وترويه الأيام وأحسنوا معاملة أهل الأديان الأخرى والمساواة بين بني الإنسان كافة.

أثره في حياتهم العقلية:

1- أول شيء وأكبر أثر للإسلام الكريم في هذا المجال الكبير هو انه حارب الأديان الفاسدة والعقائد الزائفة ووجه الناس كافة إلى الله وحده لا شريك له فرفع من شأن العقل وذم التقليد والمقلدين، ونهى عن اتباع الآباء في غير الحق، وحارب الأوهام الفاسدة التي تضعف من شأن العقل وتدعوه إلى الكسل والجمود وسلب الإسلام الناس ما كانوا يزعمونه من القدرة على تسخير ما في الوجود من غيب وجعل مرد كل ذلك إلى الله وحده، يعلم الغيب وما هو أخفى، فزالن عن العقل ظلمات كثيفة كانت تحول بينه وبين الفهم والإدراك والرؤية الصحيحة.

2- ودعا الإسلام إلى العلم الصحيح والتفكير السليم وبعث في الناس حب المعرفة والثقافة وفرض على العالم إرشاد الجاهل وتهذيبه إلى غير ذلك من مقومات الحياة الصحيحة.

3- وبتشجيع الإسلام للمعرفة نشأت العلوم الإسلامية، وعكف العلماء على البحث والتنقيب مما كان أساس المدنية والحضارة في الإسلام.

إلى غير ذلك من مظاهر الرقي العقلي والفكري، الذي كان من مقدمته أن الإسلام دعا الناس إلى أن لا يؤمنوا إلا بما يؤدي إليه العقل والدليل والبرهان الصحيح وإلى أن يمحضوا الأمور ويشبتوا في الحكم على الأشياء، فلا يصدرون عن هوى ولا يحكمون إلا بعد تنقيب وتدقيق واستبطاط صحيح. وهذا هو منهج البحث في الإسلام، وهو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية الباهرة.

أثر اللغة العربية:

للإسلام أثر كبير في اللغة العربية يمكننا أن نوجزه فيما يلي:

وحدة اللغة:

جاء الإسلام والعرب لهجات مختلفة، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج لنفوذ قريش الروحي والاقتصادي بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش، فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة، وكان من قريش ومن السلالات المضرية - أبناء عموماتهم - رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمرائها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها، فكان لذلك أثر كبير في انتحال العرب لغة قريش بعد قليل، أما ما تورث من لغة حمير، فلم يكن متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً سواء في التصريف أم الأعراب أم الأسلوب، بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الألفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المستخدمة،

فالكثع في اللغة الحميرية: هو الذئب في لغة قريش، وأنطى في لهجة حمير: بمعنى أعطى عند قريش، والشناتر في كلام حمير: هي الأصابع في لهجة قريش، وسامدون لغة حميرية وهي في لهجة قريش الغناء، وهكذا، إلى غير ذلك مما له نظير في لهجات المضريين أنفسهم، كالسدفة فهي الظلمة عند تميم والضوء عند قيس.

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات.

انتشار اللغة وذيولها:

أدت الفتوحات الإسلامية الباهرة إلى انتشار العرب في شتى البلاد المفتوحة، وإلى ذيوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار، وصارت هي اللغة الرسمية فيها، وأصبح يلهج بها بعد قليل سكان العراق سوريا ومصر وفلسطين وأفريقيا الشمالية، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد وسواها. وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى.

اتساع أغراض اللغة:

اتسعت أغراض اللغة بسلوكها منهجاً دينياً، وإتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنة الحضر، فأخذت اللغة تستعمل في:

أ- تبين العقائد الدينية التي جاء بها الإسلام: من إثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته، ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب، وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلا بعض خاصة الجاهلية، وأصبح الإسلام الشغل الشاغل لجميعهم، بل للأمة الإسلامية جمعاء.

ب- تبين الشريعة واستنباط الأحكام الملازمة لأحوال الزمان والمكان، ولحسن معيشة المرء في منزله ومعاملته للناس والسلطان.

- ج- استعملها في ضبط أمور الملك ونظام العمران، ونشر الأمان والعدل، وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضرة والأمصار.
- هـ- وضع مبادئ العلوم، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية.

أما في المعاني:

- فقد ارتقت المعاني ويظهر ذلك في الأمور الآتية:
- 1- اتساع مادة المعاني باتساع المشاهدات والمعقولات.
 - 2- حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها، لارتقاء الفكر وثقافته بالنظر الصحيح في أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم، وتنوع صور الخيال، وروعة جماله، تبعاً لتنوع المراتب الجميلة التي انتزع منها.
 - 3- دقة المعاني وعمقها وتركيبها، لأنها صارت تتبع من معين ثقافة القرآن، ومن أصول العلم والمعرفة في الإسلام.

ألفاظ اللغة وأساليبها:

- تغيرت الألفاظ والأساليب عن ذي قبل وظهر أثر هذا فيما يلي:
- 1- تهذيب ألفاظ اللغة : بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة في مجانبة حوشي الألفاظ الذي ينبو عنه السمع، ويمجّه الذوق السليم.
 - 2- نشأة ألفاظ إسلامية محضة، مثل الجاهلية للعصر الذي كان قبل ظهور الإسلام، ومثل المصحف، وأبو بكر خليفة رسول الله هو الذي أطلق هذا اللفظ على الصحف التي جمع فيها القرآن الكريم في عهده.
 - 3- التوسع في دلالة الألفاظ : بإخراجها من معنى إلى معنى وبينه وبين الأول مناسبة، ومن ذلك الألفاظ التي استعملها الشارع في غير معناها الأصلي

: كالصلاة والصيام والزكاة والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق وغير ذلك، والألفاظ التي استعملت في نظام الملك ومصطلحات العلوم والصناعات التي عرفت في ذلك العصر.

4- موت ألفاظ منع الشارع استعمال مدلولاتها أو أعضاض عنها غيرها كالمرياع والنشيطه والفضول، وكعم صباحاً وعم ظلاماً، وكقولهم (ضرورة) للذي لم يحج ولم يتزوج، فقال ﷺ: " لا ضرورة في الإسلام".

5- دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية في الكلام، وتسمى الكلمة حينئذ معربة ومن مثل ذلك: سندس وإستبرق والديباج والرقيم وأوآه وحنان والأسفار والريون وغير ذلك.

6- التأنيق في صوغ الأساليب والتفنن في تنوعها وإحكام نظمها، ووصولها في البلاغة إلى غايتها، لانبعث روح القرآن الكريم في قلوب المتكلمين بها، وسلوكهم سبيله في البيان، وحسن الأداء، مؤثرين الإيجاز على الإسهاب في أكثر المواضع، إلى أن تقاصرت دونه أفهام الناشئين في الحضر من العرب، والمستعمرين من العجم آخر هذا العصر، فأصبح للإسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الإيجاز.

ولا شك ان معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوي. حيث بزغ فجر الإسلام على العرب بالجزيرة بنور جديد تفتحت عليه عيونهم وقلوبهم وتيقظت له بصائرهم وعقولهم، وهنالك لم يجدوا بداً من الانتباه له والالتفات إليه معارضين جاحدين، أو مؤمنين مدعنين، ثم عكفوا عليه يدرسونه ويتأملونه، وكان لهذا كله من الأثر في أدبهم والتوجيه لسلوكهم، والتقويم لطباعهم، والتهذيب لأخلاقهم، والاختيار لألفاظهم، ما لا يدع مجالاً للشك في أن البلاغة في التعبير والأناقة في التصوير، والأدب في الحديث، والذوق في الخطاب، والسمو في الخيال، والإيمان بالمثل العليا، والغيرة على الحق، والغضب للكرامة، قد اتجهت اتجاهها سديداً، وأخذت لوناً جديداً، ولذلك يقول

المؤرخون: إن كثيراً من الشعر غاض مأوّه، وانتكس لواؤه، وحرار بيانه وتعثر لسانه، وذهل لبه، وخانه قلبه، وأجبلت قريحته، وأظلمت بديهته، فأقصر عن الشعر، لأنه رأى في بيانه عيباً، وفي نطقه خرساً، وفي فصاحته فهاهة، وفي أدبه قحة، وإن ما جاء به محمد ﷺ لا يتناول إلى بيانه بيان، ولا يستطيع أن ينطق بمثله لسان، أو يجري في مضماره إنسان، اللهم إلا أن يسير على ضوئه، ويهتدي بنوره، ويقتبس منه ويعود من جديد تلميذاً له، يأخذ من فضله وينتفع بأدبه، ويسترشد بنصحه.

وقد وقف دولاب الكلام إلى حد ما، وأصبح الشعر الذي كانت له دولة لها نفوذ وسلطان، وعرش وصولجان، لا يذكر إلا في مخلفات الجيوش المهزومة، والتاريخ الذاهب، لأن صوت القرآن المدوي غطى على بلاغة الشعراء، وفصاحة الخطباء، وصار الذي يقول الشعر، أو يخطب في المجالس، أو يتحدث في المجالس، لا ينطق إلا بحذق، ولا يقول إلا بميزان، فلا يتلفظ بهجر مزر، أو أدب معيب، أو كلام هزيل، أو بيان مردول.

ولا نعني بهذا أن مصراع الزمن قد أغلق دون القريض، وأن ألسنة الشعراء قد علقت عن القول، ولكننا نعني أن أساليب البيان العربي أخذت طابعاً أحسن ولوناً أجمل، وطريقاً أفضل، وسبيلاً أقوم، وصار الناس يقابلون بالسخرية مجون امرئ القيس، وخلاعة طرفة بن العبد، وتبع ذلك أنهم هجروا الألفاظ النابية، والعبارات المكشوفة، والمعاني الهزيلة، والعواطف النازلة، والأخلاق المفضوحة، وكان أسمى ما يهدف إليه قائل، أو ينطق به متحدث، الدعوة إلى مكرمة، أو الحث على فضيلة، أو الغيرة على عرض، أو التقاني في واجب، أو الذود عن حب، أو العصبية لغرض شريف، أو هدف نبيل، أو غاية محمودة، وكان حملة لواء البيان حينئذ هم جنود الدعوة الإسلامية الذين وقفوا إلى جانب رسول الله ﷺ، يؤيدون دينه، ويمكنون له ويدافعون عنه، أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت (رضي الله عنهم أجمعين)، وكانوا بهذا اللون الصادق

الإحساس والنقي الوجدان، قد أحدثوا في الشعر مجالاً، فياًضاً بالمعاني، خصباً بالصور، غنياً بالقول، قوياً ثرياً بروعة البيان، يجد عشاق الأدب فيه إرواء ظمئهم، وإشباع نهمهم، وشفاء لما في صدورهم.

والأدب المأثور عن عصر الإسلام يمثل بوضوح روح الإسلام، ومدى تأثير المسلمين بأدب القرآن الكريم وبلاغته، هذا التأثير الكبير الخطير الجليل، وكما أثر الإسلام والقرآن في حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقلية أثر كذلك في حياتهم الأدبية، وأصبح الأدب العربي بعد ظهور الإسلام يغاير قليلاً أو كثيراً أدب الجاهليين، ويصور عقلاً غير العقل الجاهلي، وشعوراً غير الشعور الجاهلي.

وصار هذا الأدب يمثل في مطلع عصر صدر الإسلام هذا الصراع بين وثنية الجاهلية وتوحيد القرآن الكريم، ولم يمض ربع قرن منذ البعثة المحمدية حتى كان العرب جميعاً قد دخلوا في الإسلام، واتخذوه عقيدة لهم وقانوناً ونظاماً ومثالاً أعلى في حياتهم، وتطور الأدب العربي بظهور الإسلام تطوراً كبيراً في أغراضه ومعانيه، وفي أخيلته وصوره، وفي فنونه الأدبية، وفي ألفاظه وأساليبه.

وهكذا غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية عند العرب تغييراً كبيراً، ومن البديهي أن تعلم التغيير الذي حدث في الآداب العربية منذ ظهور الإسلام لم يكن يرجع إلى شيء إلا إلى الإسلام وحده، فلم يرجع إلى شيء اقتبس منه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن، ولا إلى آثار مدنية وحضارة، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداءة والخشونة، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة، ومن نضال خصوم الإسلام.

فكل تغير حدث في الأدب إنما كان مصدره الأول القرآن الكريم الذي كان وحده مصدر ثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية، وهو الذي أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة، وبدل حُوشية الألسنة سهولة ووضوحاً

وبلاغة، وأورث العرب دقة في التفكير، وقوة في التعبير، وجمالاً في التصوير، ورقة في الأسلوب، وروعة في الحجة.

وعليك أن تعرف أن تأثر الإسلام في الحياة الأدبية للعرب لم يحدث فجأة، ولم يتم مرة واحدة، وإنما حدث قليلاً وظهر شيئاً فشيئاً، وقضى العرب وقتاً مستمسكين فيه بأدبهم القديم، لا يكادون يعدلون عنه، ثم بدأ عصر الانتقال بشيء من الحيرة، حين تلي عليهم القرآن فأنكروه، وأكبروه، وتدبروه، فقهرتهم بلاغته وقهرتهم قوته وعظمته، وأحبوه، واطمأنوا إليه، وبعد أن كانوا بين منكرين له أصبحوا مؤمنين به، وخاضعين له، ومقرين بعظمته وبلاغته، ومهتدين ببيانته وأسلوبه ومعانيه⁽¹⁾.

(1) محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ص33 وما بعدها.

الشعر في رحاب الدعوة الإسلامية

قريش والدعوة الإسلامية

بعدما تبين لزعماء قريش خطر الدعوة الإسلامية على نفوذهم ومصالحهم تتادوا إلى الاجتماع للتشاور في أمر (محمد)، وأجمعوا رأيهم أول الأمر على الذهاب إلى أبي طالب عم النبي ﷺ يطلبون منه صرف ابن أخيه عن الدعوة إلى الدين (الجديد)، ومنعه من سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ولما أبى أبو طالب خذلان النبي محمد ﷺ، عادوا ومعهم (عمارة بن الوليد) وقالوا له: (هذا أنهد⁽¹⁾ فتى في قريش وأجمله، فخذ به فلك عقله⁽²⁾)، ونصروه واتخذوه ولداً لك، واسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله إنما هو رجل برجل)، فقال: "والله لبئس ما تسوموني⁽³⁾ به أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونني ؟! هذا والله ما لا يكون أبداً"⁽⁴⁾.

وتروي كتب الأدب والسيرة شعراً من الفخر الخالص يشيد فيه أبو طالب بمحمد وهاشم ويعبد مناف، ويعرض بمن خذل محمداً منهم وبمن عاداه من قريش، جاء في هذا الشعر⁽⁵⁾:

إذا اجتمعت يوماً قريش لفخر فعبد مناف سرها وصميمها⁽⁶⁾

(1) أنهد: أشد وأقوى.

(2) عقله: ديته إذا قتل.

(3) تسوموني: تكلفوني.

(4) ابن هشام، السيرة، ج 1، ص 279.

(5) المصدر السابق، ص 282-283.

(6) سرها وصميمها: خالصها وكريمها.

فإن حُصِّلَتْ أشراف عبير منافها فقي هاشم أشرافها وقديما
 وإن فَخَّرَتْ يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرها وكريمها
 بنا انتعش العود الذؤاء وإنما بأكنافنا تدي وتُمي أرومها⁽¹⁾

واشتد أذى الكفار للنبي محمد ﷺ فقد أخذوا يتعرضون له ويضايقونه
 ألى التقوا به، فهاجم القرآن الكريم، من ذلك أن أمية بن خلف كان يقابله
 بالهزم واللمز، فنزلت فيه سورة (الهمزة) تهجوه وتتوعده، وكذب (أبو لهب) النبي
 ﷺ ونهره، وعيرته امرأته بالفقر، فنزلت فيهما سورة (تبت) فلا ترى إلا أبا
 وهو جالس في المسد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وفي يدها فهر من
 حجارة فلما وقفت عليه، أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا
 بكر، فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته
 لضربت بهذا الفهر فاه. والله إني لشاعرة، (وقالت):

مُذَمِّماً عصينا وأمره أبيتنا ودينه قلينا

ثم انصرفت⁽²⁾.

وارتأى النبي لحكمة منه دفع النفر القليل من المسلمين للهجرة إلى
 الحبشة، حفاظاً على أرواحهم المهددة في مكة، وهذه الهجرة استدعت عدداً من
 القصائد. نذكر من ذلك شعراً لعبد الله بن الحرث يعبر فيه عن إحساسه
 بالأمان في حمى نجاشي الحبشة ويتوجه إلى قريش باللوم والعتاب، ومما قاله⁽³⁾:

(1) أرومها: أصولها. انتعش العود: حيي وظهرت فيه الرطوبة والخضرة، الذؤاء: العود اليابس،
 الأكناف: النواحي.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن مجلد 15، ج 20، ص 234-235.

(3) ابن هشام، السيرة، ج 1، ص 353-354.

يا راكباً بلغاً عني مغفلةً من كان يرجو بلاغ الله والناس⁽¹⁾

وعلى الجملة فإن الشعر لم يندثر، وحتى لم يخفت صوته بعض الخفوت - كما صورته بعض الدارسين- ولم يكن محرماً - كما حاول أن يزعم آخرون- بدليل أن النبي ﷺ استخدمه كسلاح في محاربة المشركين.

وكان هذا الشعر يدخل في فنون الفخر والهجاء والوصف وما يتصل بها من وعد ووعد وشماتة، أو هو كله شعر حماسي، إذا فهمنا من الحماسة ذلك الشعر القوي الذي يلائم هذه الفترة من تاريخ الإسلام والمسلمين. ولم يطرأ على أسلوبه تغيير كبير في هذا العصر، فما زال الشعراء يؤثرون فخامة اللفظ وجزالة العبارة والتراكيب، أما جوهره من حيث هو عملية فنية، فقد بقي على حاله، واستمر العرف الجاهلي في صناعته وتقديره ولم يبتكر فيه فن جديد، ولا مذهب جديد، حتى ليصح القول أنه من هذه الناحية امتداد لشعر الجاهلية وإن تغير بعض معانيه واستمد من القرآن مدداً لغوياً معنوياً، ولكن لم يطل الزمان حتى ظهرت بوادر التجديد في الغزل والسياسة والزهد، وسائر فنون الأدب.

ولم يطرأ على أوزان الشعر وقوافيه تغيير يذكر في هذا العصر، ولكن الشعراء صاروا ينتبهون إلى عيوب القافية والوزن ويتحاشونها، وكانت فاشية في الشعر الجاهلي، ووجدت في هذا العصر جماعة من الشعراء عنوا عناية بالأراجيز: (القصائد المنظومة على بحر الرجز)، وكان الجاهليون يقولون الأبيات القليلة من الرجز يحدون بها الإبل، أو يصفون بها حيوان الصحراء، أو يتغنون بها، فجاء هؤلاء فأطالوا الأراجيز، وفاقوا الجاهليين في استعمال الألفاظ الغريبة، وتناولوا في أراجيزهم شتى الموضوعات، كالمدح، والفخر، والثراء، والهجاء، حتى أصبح فناً مستقلاً في العصر الأموي، وهؤلاء الشعراء هم الذين عرفوا بـ(الرجز)

(1) حبيب يوسف مغنية، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، ص 120.

واشتهر منهم في ذلك العصر الأغلب العجلي، وهو أول من أطلال الرجز، وأبو النجم العجلي، والعجاج التميمي، وابنه رؤبة وغيرهم.

واختلف تأثير الإسلام في أساليب الشعراء المخضرمين فاحتفظ الحطية - مثلاً - بشخصيته الجاهلية، وإن تأثر بالقرآن في بعض معانيه، وأما لبيد فقد سكت عن الشعر احتفالاً بالقرآن إلا في بعض الحالات، وبقيت الخنساء جاهلية في شعرها، ومثلها كعب بن زهير وإن مدح في قصيدته (بانت سعاد) الرسول ﷺ. وأما حسان بن ثابت فكان شعره الجاهلي أقوى من شعره الإسلامي؛ لتغير البيئة عليه وارتجاله، وكثرة ما قال، وتقيد بحدود الدين، وترك معايير القديمة، على أن له بعض قصائد إسلامية جيدة، كقصيدة له في بدر، وثانية في فتح مكة، وثالثة في مفاخرة شاعر تميم⁽¹⁾.

شعر الوفود:

ساد الإسلام في السنة التاسعة للهجرة، وتعززت مكانته، وقويت شوكته، وتوطدت أركانه في المدينة وفي نفوس الكثيرين من العرب خارجها، ولم يكن أمام زعماء قريش بعد أن توالى عليهم الهزائم إلا أن يدخلوا في الإسلام، وكان أن فتحو أبواب مكة فدخلها المسلمون يتقدمهم النبي محمد ﷺ، وكان هذا الفتح إيذاناً بتمكين الإسلام من الجزيرة العربية كلها، وفي هذه السنة بدأت وفود العرب تتوالى على الرسول، تعلن له ولاءها وتشهده على إسلامها، كما فزع إليه جموع الشعراء تائبين مسلمين معاهدين، ومن هؤلاء عبدالله بن الزبير الذي أتى الرسول معترداً إليه مادحاً إياه بقوله⁽²⁾:

(1) تاريخ الأدب العربي، أدب صدر الإسلام، ص 181.

(2) انظر: ابن هشام: السيرة، ج 3، ص 275-320.

يا رسول الملّيك إنّ لسانِي راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بورٌ⁽¹⁾
 إذا أُجاري الشيطان في سنن الفـي ومن مال ميله مثبورٌ⁽²⁾
 آمن اللحم والعظام بما قلّـت فتفسي الفدى وأنت النذيرُ

وقد أحسن في اعتذاره، فهو يعلن للنبي بأنه ملتزم من يومه هذا بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية، ومصلح في شعره، ما كان قد أفسده فيما مضى من أيام ضلاله وكفره، فإلهلاك مصير من يجاري الشيطان ويتبع غوايته، ويقرّ بأن الإسلام والإيمان قد تغلغلا إلى كل ذرة في كيانه، وأنه يفتردي نبيه بنفسه.

وكان ابن الزبير قد صوّر ما أصابه من هموم، وما داخله من هواجس وظنون أفضت مضجعه، وأوهنت جسده، بعدما نُمي إليه أن النبي محمداً قد توعده لمعاداته الإسلام والمسلمين، وذلك في قصيدة يتوجه فيها إلى الرسول بالتوبة والاعتذار والمدح، فهو يراه أفضل الخلق، ويندم على غوايته وضلاله ومحاربه المسلمين منصاعاً إلى سهم ومخزوم، ويرجو منه عفواً وغفراناً، فهو أحبّ إليه من أبويه، يضحي بهما من أجله (يفترديه بهما)، والنبي هو الراحم المرحوم، يعلوه من علامات النبوة نورٌ وضاء، فالنبوة سمة مطبوعة فيه، وينهي بمناشدته قبول توبته والعفو عنه، فأسباب العداوة والبغضاء والتباعد قد انتهت بإسلامه وإسلام قومه، وهذا كفيل بتمتين أواصر القرى بين العرب جميعهم وإحلال العفو والسلام والمحبة في ديارهم⁽³⁾:

(1) البور: المهالك الفاسد الذين لا خير فيه، الرقيق: ضد الفتق، راتق ما فتقت: مصلح ما كنت قد أفسدته.

(2) مثبور: هالك.

(3) ابن هشام، السيرة، ج4، ص 139-140.

مَعَ الرُّقَادُ بِلَابِلٌ وَهَمُومٌ وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرُّوَقِ بِهِيمٌ⁽¹⁾
 مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامَنِي فِيهِ فَبْتُ كَأَنِّي مَحْمُومٌ⁽²⁾
 يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتَ عَلَى أَوْصَالِهَا عِيرَانَةً سَرَحَ الْيَدَيْنِ رَسُومٌ⁽³⁾
 إِنِّي لَمَعْتَدُ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي أَسْدَيْتُ إِذَا أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمٌ⁽⁴⁾
 أَيَّامَ تَأْمَرَنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ سَهْمٌ وَتَأْمَرَنِي بِهَا مَخْزُومٌ
 فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَالَّذِي كَلَاهُمَا ذَنْبِي فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومٌ
 وَعَلَيْكَ مِنْ أَثَرِ الْمَلِكِ عِلَامَةٌ نَوْرٌ أَضَاءَ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ
 مَضَتْ الْعِدَاوَةُ فَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا وَدَعَمْتُ أَوْاصِرَ بَيْنِنَا وَحُلُومٌ

كما وفد على الرسول الشاعر كعب بن زهير وأعلن توبته وإسلامه بين يديه ومدحه بقصيدة مشهورة مطلعها⁽⁵⁾ :
 بَأَنْتَ سَعَادَ فِقْلَبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مَتِيمٌ لَثَرَهَا لَمْ يَشْفَ مَكْبُولٌ

(1) بلابل: وساوس وأحزان مختلطة، معتلج: مضطرب، يركب بعضه بعضاً، بهيم: لا ضياء فيه.

(2) أحمد: النبي محمد ﷺ.

(3) عيرانة: الناقة التي تشبه العير (حمار الوحش)، في شدته ونشاطه، سرح اليدين: خفيفة اليدين في عدوها، رسوم الأرض وتؤثر فيها بشدة وطئها، أو وهو من الرسيم، وهو ضرب من الإبل.

(4) أسديت: صنعت، أهيم: أذهب على وجهي متجيراً.

(5) ابن سلام الجعفي، طبقات الشعراء، ص 46.

وكان أنس بن زعيم قد هجا الرسول ثم جاءه معتذراً تائباً، ومدحه بأبيات منها هذا البيت⁽¹⁾:

وما حملتُ من ناقة فوق رحلها أبرُّ وأوفى ذمّةً من مُحمد

وأنشد أبو سفيان شعراً كثيراً أعرب فيه عن أساءه وحزنه على ما سلف من معاداته الإسلام وأهله، نذكر منه هذه الأبيات⁽²⁾:

لعمرك إنني يوم أحمل رايةً لتغلب خيلُ الالات خيلَ محمد

أنا المدلج الحيران أظلم ليله بعيداً أرجي حين أهدي وأهتي

هداني هام غير نفسي وقادني إلى الله من طردتُ كلَّ مُطرَد⁽³⁾

موقف اليهود من الدعوة الإسلامية:

ولما صدح النبي ﷺ بدعوته المباركة خشى اليهود على نفوذهم الديني والسياسي والاقتصادي من أن يزول أو يضعف، فأخذوا يكيّدون للرسول ويفترون على الإسلام، متبعين أسلوبهم التاريخي المعتاد القائم على التزوير، والنفاق والغدر، وفي أثناء الحروب والغزوات التي دارت بين المسلمين والكفار من قريش وحلفائها، تدخل اليهود تدخلاً سافراً ضد المسلمين، وكان دورهم في هذا الصراع الدائر يمثل بالاشتراك الفعلي في حرب المسلمين حيناً، وبالتأمر والتحريض وإذكاء نار العداوة والبغضاء على النبي ﷺ وعلى من آمن به.

(1) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 52، نقلاً عن الإصابة لابن حجر، ج 1، ص 69.

(2) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص 96، والأغاني، ج 4، ص 152، والمدلج من الدلج والدلجة وهو السير من أول الليل.

(3) حبيب يوسف مغنية، المصدر السابق، ص 144.

يصوّر الشعر الذي يروى عنهم مواقفهم العدائية تلك أحسن تصوير ، فعندما علم كعب بن الأشرف⁽¹⁾ بهزيمة قريش في بدر قدم من المدينة إلى مكة وأخذ يحرض قريشاً على الانتقام والثأر مهولاً من نكبتها مستفطعاً مصائبها بزعمائها ، يقول في ذلك⁽²⁾ :

طلحت رحي بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع⁽³⁾
 قُتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الموم تُصرع⁽⁴⁾
 نبئت أن الحارث بن هشامهم في الناس يبني الصالحات ويجمع
 ليزور يثرب بالجموع وإنما يحيي على الحسب الكريم الأروع⁽⁵⁾

ويشير حسان بن ثابت إلى مقتل ابن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف اليهوديين جزاء ما اقترفاه في حق النبي ﷺ والإسلام والمسلمين ، مشيداً بمن نفذوا فيهما حكم الله العادل⁽⁶⁾ :

لله در عصاة لا قيتهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف⁽⁷⁾

(1) جاء في طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (ص 107) ، أن (كعب بن الأشرف وهو من طئ وأمه يهودية) من بني النضير فكان في أقواله سيئاً وبكى قتلى بدر وشبب بنساء النبي ﷺ ونساء المسلمين فأمر الرسول محمد بن سلمة ورهطاً معه من الأنصار بقتله فقتلوه.

(2) ابن هشام ، السيرة ، ج 2 ، ص 431.

(3) تستهل : تسيل بالدمع.

(4) سراة الناس : خيارهم ، لا تبعدوا : لا تستبعدوا.

(5) الأروع : الذي يروع لحسنه وشجاعته.

(6) ديوان حسان بن ثابت ، ص 329.

(7) العصاة : الجماعة من الناس.

- يسرون بالبيض الرقاق إليكم⁽¹⁾ مرحاً كأسد في عرين مغرف⁽²⁾
 حتى أتوكم في محلّ بلادكم فسقوكم حتقاً ببيض قرقف⁽³⁾
 مستبصرين لنصر دين نبهم مستصفرين لكل أمر مجحف⁽⁴⁾
 كما يشير كعب بن مالك إلى ما أصاب اليهود من خزي جزاء غدرهم
 وخيانتهم فيقول في مقتل كعب⁽⁵⁾:
 لقد خزيت بغدرتها الحبور كذلك الدهر ذو صرف الأمور
 فيجيبه سماك اليهودي معبراً عن الهم المقيم الذي أصابه لمقتل كبيرهم
 كعب⁽⁶⁾:
 أرقّت وضافني هم كبير بليل غيره ليل قصير⁽⁷⁾

شعر الردّة:

إثر وفاة النبي سعى عدد من القبائل العربية لدى الخليفة أبي بكر الصديق ليعض عنهم فريضة الزكاة، ويبدو أنهم لم يدركوا أبعاد هذه الفريضة الإنسانية والاجتماعية والخلقية، فنظروا إليها على أنها جزية مفروضة عليهم لقريش، ولهذا

- (1) يسرون: من السرى، وهو السير ليلاً، البيض الرقاق: السيوف، مرحاً: نشاطاً. في عرين مغرف، العرين: الأجمة، والغريف: النهر، يريد في أجمة في ماء.
 (2) القرقف: الخمر، سميت كذلك لأنها ترقف شاربيها أي توعده، ومعنى الشطر الثاني: سقوكم بالسيوف مناياكم فصرعنكم كما تصرع الخمر شاربيها.
 (3) مجحف: ذاهب بالنفوس والأموال.
 (4) ابن هشام، السيرة، ج3، ص204-205، والحبور: زعماء الدين اليهود.
 (5) المصدر السابق، ص207، وضافني: نزل بي، زارني.
 (6) حبيب يوسف مغنية، المصدر السابق، ص15.

فهم أنفوا أن يؤدوها، من هذه القبائل أسد، وغطفان، وطئ، وكان من الطبيعي أن يرفض أبو بكر إجابتهم لما يطلبون، وفي ذلك يقول جزول الحطيأة معبراً عن نزوع العربي الفطري إلى التحرر من القيود، ورفضه الخضوع لأية سلطة، ومشيراً في الوقت عينه إلى ما يعتمل في النفوس من التبرم والسخط لاستئثار قريش بالخلافة من دون العرب جميعاً، مهدداً ومتوعداً بحرب لا تبقى ولا تذر⁽¹⁾:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورها بكرة إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلأ رددتم وفدنا بزمانه وهلا خشيتم حسن راعية البكر
وإن التي سألوكم فمنعتم لكالتمر أو أحلى إلي من التمر⁽²⁾

وفي زمن أبي بكر حرّر الجيش العربي الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد الحيرة من الاستعمار الروماني، وكان الزعماء العرب فيها صنيعة هذا المستعمر قد تنصروا ونصروا أتباعهم من العرب، فلما غلبوا على أمرهم بالفتح آثروا البقاء على دينهم فصالهم خالد بن الوليد على أن يؤدوا الجزية، وفي ذلك يقول بقبيلة عمرو بن عبد المسيح شعراً يشكو فيه من تبدل الأحوال، ويتحسر على ما كان لهؤلاء الزعماء والمترفين والقادة من امتيازات في ظل المناذرة، حلفاء المستعمر، فقد كانوا قبل الفتح والتحرير أصحاب سطوة وجبروت، وها هم الآن يؤدون الجزية كأبناء فارس واليهود، ونلمح في هذا الشعر اتجاهاً قبلياً واضحاً يوجه المعاني وجهة عصبية قديمة، مثله في هذا مثل معظم الشعر الذي قيل في هذه الفترة بعيداً عن مقر الخلافة في الحجاز، يقول ابن بقبيلة⁽³⁾:

(1) الأغاني، ج2، ص157.

(2) يعني بذلك إسقاط الزكاة والتحلل من الخضوع لسلطة الخليفة.

(3) تاريخ الطبري: ج3، ص362.

أبعد المنذرين أرى سواماً تُروّح بالخورنق والسدير⁽¹⁾
 ويغد فوارس النعمان أرعى قلوصاً بين مرة والحفير⁽²⁾
 فصرنا بعد هلك أبي قبيس كجرب المعز في اليوم المطير
 نُودّي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
 كذاك الدهر دولته سجالاً فيوم من مساءة أو سرور

ولما فرغ أبو بكر الصديق من حروب الردة ونجح في إزالة الآثار المترتبة عليها ، واستقر الأمر في سائر أنحاء الجزيرة العربية وجّه الجيوش لتحرير وادي الرافدين وبلاد الشام من الاحتلالين الأجنيين الفارسي والروماني⁽³⁾.

(1) السوام: في الأصل: المال الراعي، والمقصود هنا العامة من الناس، الخورنق والسدير: من قصور المناذرة.

(2) القلوص: الناقة الفتية.

(3) حبيب يوسف مغنية ، المصدر السابق، ص162.

الشعر في زمن الرسول ﷺ

أول ما يلاحظ في هذا العصر، أن المناقضات التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج في المدينة، اتجهت في الإسلام وجهة جديدة، فالأحقاد القبلية بين أهل المدينة قد عفا عليها الإسلام، فتحولت إلى مناقضات بين قريش في مكة، والأنصار في المدينة، وقد نشط في ذلك حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وكلاهما خزرجي من المدينة، وبرز عبدالله بن الزبيري وضرار بن الخطاب، وكلاهما قرشي من مكة .

وللتحدي الجديد الذي شهدته مكة من شعراء المدينة، الذين رفعوا راية الإسلام من جهة، وللتهديد الذي واجهها من قوة الدين الجديد، الذي جاء ليقوض كل معتقداتها ومقدساتها، من جهة أخرى، فقد برزت الشاعرية القرشية في هذه الظروف، بعد أن كانت ضعيفة هزيلة في الجاهلية، فصحيح أنه كان لقريش شعراء معروفون قبل الإسلام - كأبي سفيان وابن الزبيري - إلا أن شعرهم ما كان ليطاول شعر المدينة، وكان ابن سلام قد رد قلة الشعر القرشي، وضعه في الجاهلية إلى أنه: " لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا " ⁽¹⁾، وقد وجدت في الإسلام النائرة، وكثرت الحروب وشحذت الهمم والعزائم، فبرز الشعراء القرشيون، وقد كان نشاطهم محددًا بفترة ما قبل الفتح، ويمكن أن نحدد بداية نشاطهم - المتعلق بالإسلام - ببيتين لضرار بن الخطاب فيما يروي ابن اسحق ⁽²⁾، قالهما في سعد بن عباد، والمنذر بن عمرو الأنصاريين، في أمر العقبة الثانية، والبيتان هما:

(1) طبقات الشعراء ص 217.

(2) السيرة ق 1 ص 450 وعيون الأثر ج 1 ص 166.

تداركت سعدا عنوة فأخذته

وكان شفاء لو تداركت منذرا

ولو نلتها طللت هناك جراحه

وكان حرياً أن يهان ويهدرا

وكان أن أجابه حسان بقوله من أبيات⁽¹⁾:

لست إلى سعي ولا المرء منذر

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمرا

فلولا أبو وهب لمرت قصائد

على شرف البرقاء يهوين حُسرا

أتفخر بالكتان لما لبسته

وقد تلبس الأنباط ريطا مقصرا

ويستمر نشاط الشعر القرشي خلال المعارك الإسلامية، في بدر وأحد والخندق حتى الفتح، حيث يسلم شعراء مكة ويقولون الشعر في مدح رسول الله ﷺ والاعتذار إليه، ويلوذ الشعراء بعدها بالصمت فلا يجدون متنفسا إلا في بعض الأحيان، ونكاد لا نسمع صوت الشعر القرشي بعد ذلك.

(1) السيرة ق1 ص451، وديوان حسان بن ثابت ص192 روى البيت (لست الى عمرو...) البرقاء : موضع في البادية ومنه قول الراجز : (يترك بالبرقاء شيخا قد قلب) . الانباط : قوم من العجم، الریط ج ریطة، الملاحف البيض.

وإذا ما اتضحت الشخصية الإسلامية قوية ذات شدة وخطر في المدينة، يكون المسلمون قد بدأوا مرحلة جديدة في النضال متخذين القوة سبيلا، فيتطور الصراع من المناوشات الكلامية إلى الحرب الدامية التي تتخطف الصرعى من كلا الجانبين، ولم يكن ذلك الصراع الدامي ليقصر على القرشيين من جانب، والمسلمين من جانب آخر، بل شمل القرى اليهودية وتأثر به الأعراب في البادية، والثقفيون في الطائف، فانهاز بعض هؤلاء إلى معسكر المسلمين في المدينة، وانهاز آخرون إلى معسكر المشركين في مكة، وقد استمرت هذه الحال خلال السنوات التسع التي سبقت النصر في الفتح، ودخول الناس في دين الله، وكسر شوكة اليهود من قريظة والنضير.

وقد كانت الأحداث الكبرى التي مكنت للدعوة ونشر الدين، أهم عامل لازدهار الشعر في عصر النبوة، فالفترة الواقعة بين الهجرة إلى حنين والطائف، كانت فترة ازدهار الشعر وفورته، لأن الخصومة كانت قائمة على جدتها وشدتها، وأبان هذه الأحداث ظهر الطابع الديني في شعر الشعراء المسلمين، ولذلك فعلى الدارس أن يتبع أثر الدين في الشعر الذي قيل في الإحداث الكبرى بخاصة، مقارنة ذلك الأثر بما جاء في كتاب الله العزيز من تصوير للمعارك والغزوات ومن توجيه للمسلمين⁽¹⁾.

(1) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص 260.

أثر القرآن الكريم والحديث الشريف

ان القرآن الكريم كان اول ظاهرة نثرية فنية عرفها العرب كتابة وان الادب لم يتأثر بالقرآن فقط من حيث المعنى بل تعدى ذلك الى المبنى وسلك الاسلوب نفسه من من تعابير ومفردات، فقد حقق القرآن الكريم للهجة قريش استكمال سيادتها على شبه الجزيرة العربية فلقد بهر العرب بلفته وعجزهم بأسلوبه فتأثروا به وامتد انتشارها ليس بين القبائل العربية فحسب بل تعدت ذلك الى سائر الأجناب الاخرى التي دخلت في الاسلام وارتبطت به وبدولته وبهذا أحدث الاسلام انقلاباً في الادب على صعيد وانتشرت مع انتشار الدين الجديد واتسعت افاقها وتحضرت حتى بلغت مناطق اخرى واصبح باستطاعتها مجازاة الحضارة.

وحفظ القرآن الكريم اللغة من الانقراض لأنه أتاح اللغة الفصحى البقاء والدوام فقد اكتسب اللغة الفصحى بالقرآن الكريم قدسية جعلت السلمين يتمسكون بها ويحافظون عليها ويولونها دراسة وعناية على مر الحقب والعصور وبهذا ظلت حية خالدة كما اكتسبت اللغة الفصحى بفضل القرآن الكريم الفاظاً جديدة لم تكن معروفة عند العرب بدلالاتها التي صيغها به القرآن الكريم مثل الكفر والايمان والنفاق والاشراك والاسلام والصلاة والصوم والزكاة والتيمم والركوع والسجود.... الخ من الالفاظ التي ارتبطت بالدين الحنيف واصبحت مصطلحات في اللغة والشرع وحيثما نتصفح المعاني الجديدة في الشعر الإسلامي نراها مستمدة من القرآن الكريم الذي راح يعالج الحياة والقضاء والقدر ونفوس البشر ودخلته معان جديدة مثل الثواب والعقاب والتقى والروع والزاهد والشوق الى الآخرة بحيث طغت على هذا الشعر وأصبحت ملمحاً من ملامحه ومستلزماً من مستلزماته.

ومن تأثير القرآن الكريم انه قد أثر في اللغة تأثيراً داخلياً حيث هذه الكثير من الفاظها ورق لها اساليبها وأبعدها عن الحوشية وغرابة اللفظ اذ اكثر

المسلمون من ترديد آياته في الصلاة والتعبير بتلاوته ودوام درسه والتأمل فيه ونتج جراء ذلك من خلال هذه العناية في الحفظ والدراسة أن ظهرت كثير من العلوم اللغوية والشرعية أو تلك العلوم التي قامت عند المسلمين الأوائل إنما قامت لخدمة القرآن الكريم فقد اكتسبت اللغة من هذه العلوم الكثير من الاصطلاحات والاساليب الفنية فحققت بذلك ثروة جمة ما كانت تعرفها من قبل وكان من أهم هذه العلوم علوم اللغة والأدب والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع ورسم العروض والقراءات والتفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه والزهد والتصوف والاعتزال.

وبتأثير القرآن الكريم ازدهرت الخطابة الإسلامية استجابة لمتطلبات العصر وأحداثه كالخطب الدينية التي اشتهر بها الإمام علي بن أبي طالب، فقد كان الوسيلة المناسبة والأكثر فعالية لانتصار الدين الجديد وقيم مبادئه وذلك عن طريق اقناع الناس باستخدام طريق القول والتأثير فيهم بوساطة الترغيب والترهيب وفق ما جاء في القرآن الكريم بما أضاف من الفاظ وتراكيب وصور وأدلة وبراهين وإيجاز وبلاغة. وينسحب ذلك على أثره في حقل النشر العربي، مما دفع الأدباء إلى الارتقاء بالأساليب الفنية والصورة والاختيالة.

أما الحديث النبوي الشريف فهو ما روى عن النبي محمد ﷺ قولاً، والنبي الكريم أفصح العرب لا جدال وخطبه وأحاديثه وجوامع كلمه من حيث البلاغة أقل درجة من القرآن الكريم لكنها في الذروة العليا بالنسبة لكلام العرب وكان له تأثير واضح في متلقيه من المسلمين الأوائل واللاحقين بعدهم فقد احتفظوا به وحفظوه مشافهة من الرسول ﷺ وتناقله الصحابة ثم التابعون واقتضوا أثره في كلامهم واغترفوا من معانيه تضيئاً واقتباساً.

وقد ارتبط الحديث النبوي الشريف بالقرآن الكريم لا نه جاء مفسراً للكثير من أحكام ولهذا ارتبط باللغة وكان تأثيره فيها جليلاً، فقد ساهم الحديث النبوي الشريف مع القرآن الكريم في انتشار اللغة العربية الفصحى

وحفظها وبقائها كما ان له اثراً في تهذيب اللغة والنأي بها من الحوشي والهجين، كما كان للحديث النبوي أثره في العلوم التي قامت من اجله او العلوم التي أسهموا فيها مثل علم غريب الحديث وعلم مصطلح الحديث وعلم الرجال و الأثر، ومثل علم التفسير والقفه والأصول وقد ادى هذا كله الى ثراء النهضة العلمية التي قامت على أيدي العلماء المسلمين في العصور الإسلامية المختلفة.

تمكن القرآن من فطرة العرب على وجهه المعجز، فنزل من نفوسهم منزلة الطبع الأصيل، وأثر في ألسنتهم وحياتهم، وكان إليه مرد كل حظ أصابوه من الارتقاء في معارف الكمال.

والذي يعنينا ذكره هنا هو بيان لمح من أثره في اللغة وأدبها، إذ البحث كله مسوق إلى ذلك وحده، ونجعل ذلك في أمور:

1- جمع العرب على لغة واحدة، هي لغة قريش وحاضرة الحجاز، وجعل هذه اللغة لغة الدين والساسة والإدارة والحياة، وكانت قبل نزوله لجهات متعددة لكل قبيلة لهجة ولحن.

2- كانت اللغة العربية محصورة في جزيرة العرب، لا تعدو أغراضها مطالب الحياة الضيقة التي كانوا يحيونها، فما اجتمعوا على القرآن وساروا تحت لوائه فاتحين، حتى سارت معهم لغتهم شرقاً وغرباً، وانتشرت في الأصقاع البعيدة، وأصبحت لغة الملايين في أنحاء الأرض من جنوبي فرنسا في الغرب إلى تخوم الصين في الشرق، وأصبح الناس يتعلمونها في الغالب تديناً لتفهم القرآن وتدبر آياته ومعانيه، ويتعلمونها سياسةً للتفاهم مع حاملية إليهم.

3- جعل اللغة العربية اللسان الرسمي للدولة الإسلامية التي انتظمت أمماً وشعباً عظيمة.

4- صانها من ان تتبدل بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بد، ولولاه لتبدلت فعلاً، اختلف في اللهجات وأصبح لكل لغة عامية يتخاطبون

بها، ظلت اللغة الأدبية والعلمية بينهم مشتركة، وكان الفضل في هذا له وحده.

5- وسع أغراضها، فخضعت للتعبير عن عقائد الدين من نحو البحث في وجود الصانع وتوحيده، والنبوة وما توجبه من الإيمان بالبعث، وخضعت للتعبير عن الأحكام التشريعية، وعن مرافق الحضارة والعمران ونظم الملك وعن الفنون والآداب والعلوم على اختلافها.

6- وسع معانيها بما أدى إليه من ارتقاء الفكر والثقافة وشرائع الحياة.

7- وسع مادة ألفاظها بالتوسع في دلالاتها وإخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأول مشابهة وعلاقة، كما فعل في ألفاظ الصلاة والصيام والزكاة والمسلم والمؤمن والكافر والفاسق والركوع والقيام والوضوء، وغيرها ألوف، فالمعنى اللغوي لهذه المفردات هو غير المعنى الاصطلاحي، وجرى مجراه في ذلك (الحديث)، وتبعهما في مذهبهما أهل العلوم والآداب والفنون والصناعات فيما وضعوا من مصطلحات تزخر بها المعجمات ويعسر استيفائها، فكانت للألفاظ معان لغوية ومعان اصطلاحية، وسيبقى هذا الباب المدد الذي يمد اللغة والعلوم بحاجاتها من ذلك في كل زمان.

8- هذب ألفاظها وأساليبها بما هذب من طباعهم ولأن من قلوبهم، بقراءته وحفظه والاقتباس منه، فهجروا الغريب، وجاءوا بالعذب الرقيق المأنوس، فركت لذلك الأساليب.

9- دفع العلماء إلى تتبع اللغة وتدوينها ورواية شواهدا، فألقت دواوين اللغة وكتب البلاغة والنقد، وجمعت دواوين الشعر، فكان صنيع هؤلاء العلماء صلة بين اللغة والعلوم التي أفرغت عليها من بعد.

10- كان السبب في أحداث علوم كثيرة لولاه لم يخطها قلم، فاقتضت صيانتها من اللحن والفساد نشوء النحو والصرف والاشتقاق، وتقرير

إعجازه المعاني والبيان والبديع، والنقد والموازنات الأدبية، وبعث تفسير مفرداته وتوضيح معانيه على تدوين اللغة والأدب والشعر، وأدى استنباط أحكام الشرع منه إلى تدوين الحديث وابتكار الأصول وكتابة الفقه والتفسير، وتأييد عقائده إلى التأليف في علم الكلام والجدل والمناظرة، كما أوجد بخصه التاريخية المسوقة للعبارة وتعرضه لأحوال الأمم والاجتماع والسياسة والاقتصاد والأخلاق فنوناً هي للأدب مادة لا تتضب، كفن القصة، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والأخلاق، إلى غير ذلك مما أكسب اللغة ثروة عظيمة في المعاني والاصطلاحات والأساليب.

11- اتخذ الأدباء إماماً في طريقته البيانية، ونهلوا من معانيه، وحفظوا روائعه، فكان لهم منه معين فياض فيما افتتوا فيه من صور البيان، والتمسوه من أسباب الجمال في رسائلهم وأشعارهم وقصصهم وأدبهم في جميع العصور⁽¹⁾.

1- أما أثره في الأساليب والألفاظ، فيتجلى واضحاً فيما يلي:

1- وحد القرآن لهجات اللغة العربية في أفصح لهجة، وأعذب لغة، وهي لهجة ولغة قريش، ثم حفظ اللغة من الاندثار والانقراض، كما انقرضت لغات كثيرة.

2- كان القرآن أول عامل في ذيوع اللغة العربية وانتشارها وجعلها لغة رسمية عامة في شتى البلاد التي فتحها المسلمون.

3- جدد القرآن الكريم كثيراً من الألفاظ، فنقلها إلى معان إسلامية، مثل الإيمان والكفر والنفاق، والصلاة، والصيام، والزكاة، والركوع،

(1) محمد بهجة الأثري ومصطفى جواد وكمال إبراهيم، الأساس في تاريخ الأدب العربي ص116.

والسجود، والوضوء، والغسل، والحج.

4- هذب القرآن الأساليب والألفاظ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم في الصلاة والعبادة، وطول درسهم له وتفهمهم إياه واستباط أحكام دينهم وشريعتهم منه، فنشأ من ذلك أن هجر كثير من الأساليب الحوشية والمعيبة واستبدل بها الألفاظ العذبة السائغة، وعُدل عن الأساليب القديمة المعقدة والمتداخلة في بعض أساليبه السهلة الممتعة، وأبطل سجع الكهان.

5- وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبارات القرآن في ألفاظه وأساليبه واقتباسهم من آياتهم فيما يقولون واستشهادهم بها في وعظهم ومحاورةهم وجدلهم. ويرى المتتبع لشعر المخضرمين في أول الإسلام كحسان وأبي قيس صرمة وكعب بن مالك والحارث بن عبد المطلب، ولشعر الإسلاميين كثيراً من ألفاظ القرآن وأساليبه وكنائياته وتشبيهاته.

6- وقد خلد القرآن صور البيان الرائع والأساليب البديعة التي استخرجها بعض الأدباء منه وسموها المحسنات البديعية.

ب- وأما أثر القرآن الكريم في معاني الأدب العربي فيتلخص فيما يلي:

1- شيوع الدقة، والعمق والترتيب العقلي، والحصافة والسمو، في معاني الأدب -شعره ونثره- بتأثر الأدباء والشعراء بمعاني القرآن الكريم، ومحاكاتهم لها.

2- هجر المعاني البدوية والحوشية والنايبة، واستعمال الأدب للمعاني الإسلامية الجديدة.

3- ترك المبالغة والفحش، والتزام الصدق والإخلاص في معاني الأدباء الإسلاميين.

ج- وقد أثر القرآن الكريم في أغراض الأدب شعره ونثره تأثيراً كبيراً:

1- فقد هجر الأدباء الإسلاميون الأغراض الجاهلية: من المبالغة في المدح والفخر والهجاء، والمجون في الغزل، والدعوة إلى العصبية والانتقام والأخذ بالثأر.

2- وقد أتى القرآن بكثير من القصص المسوقة للعبارة والذكرى، كقصص الأنبياء وبعض الملوك، وكان من أهم الأساليب التي حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة السامية وغير السامية، مما جعل التاريخ العربي ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث، وجعله من أجمل كتب الأدب العربي. وهكذا أحيى القرآن فنوناً أدبية جديدة، كأدب القصة والتاريخ، وأدب الزهد وأدب الحكمة وهكذا.

3- وبسبب القرآن عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية، وكثرت الكتابة في هذه العلوم والثقافات، ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن من حيث معرفة ألفاظه والوقوف على معانيه الوضعية والمجازية وأساليبه المختلفة وكنائياته الدقيقة حملتهم بل فرضت عليهم تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربييتهم، فكان من ذلك أن تجرد ألفوف من الرواة، يجمعون اللغة وشعرها وأمثالها ووصاياها وخطبها وأسجاع كهانها، فجمعوا من ذلك مئات الكتب والرسائل، وتألفت بذلك مادة الأدب القديم، التي صار فيما بعد أساساً للأدب العربية في موضوعاتها وأغراضها ومعانيها وتصوراتها وأخيلتها.

4- ولقد رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنون الأدب.

5- ولقد اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء وصياغة الحجج، ما جعلهم يحتذون حذوه، ويتبعون منهجه، فإذا كنا نقرأ أي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أو قوله ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْمَىٰ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ أو قوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

فإننا نرى هذا الأسلوب البياني الرائع يتمثل في قول حسان بن ثابت في الرد على أبي سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ:

أتهجوه ولست له بكفء فشر كما لخير كما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ رأينا كذلك حسناً يقتبس هذا الأسلوب في قوله:

عزيز عليه أن يحميوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن:

فما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الام
وخفض له مني الجناح تألفاً لتدنيه مني القرابة والرحم

وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تفكيرهم حتى لقد رأينا الحطية وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

والحق أن القرآن الكريم هو الذي خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب والشعر⁽¹⁾.

وأثر الحديث النبوي في الأدب العربي يمكننا تلخيصه فيما يلي:

أ- أثره في الألفاظ والأساليب:

1- زاد الحديث النبوي ألفاظاً جديدة، كتسمية: "صفر الأول"، محرماً وكلفظ الزمارة للزانية، التي وردت في حديث أبي هريرة: "إن النبي نهى عن كسب الزمارة" وكلمة الصير بمعنى الشق في قوله ﷺ "من أطلع من صير باب فقد دَمَر".

وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعي للإفاضة فيه.

2- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابية والمعاظلة والتعقيد في البيان، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان.

3- قضى على سجع الكهان، ورفع منزلة النثر.

4- زاد كثيراً من الأساليب البليغة في الأدب العربي.

ب- أثره في المعاني:

وقد أثر الحديث في معاني الأدب والأدباء والشعراء وأخيلتهم تأثيراً كبيراً، فنضجت بسببه معانيهم، ودقت أفكارهم وحصفت آراؤهم، وأصبحت كذلك يسودها الأحكام والترتيب، ويغلب عليها السمو والטהر والنزوع إلى المثل العليا والمبادئ الشريفة.

(1) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ص75.

ج- أثره في أغراض الأدب:

1- وقد أثرت البلاغة النبوية في أغراض الأدب العربي تأثيراً كبيراً، فهجر بسببها الهجاء الكاذب والفخر المبالغ فيه والهجاء الماجن، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبية.

2- وأصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة النبوية في أغراضها، فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة إلى الخير والحق والإسلام، وفي تأييد العقيدة الإسلامية، وفي كل شريف من الأغراض، وكريم من الموضوعات.

3- وصار الحديث النبوي كذلك محوراً لعلوم دينية وعربية كثيرة وضعت لدراسة الحديث.

4- كما ساعد الحديث النبوي على توحيد لهجات العربية وعلى ذيووعها وخلودها، فهو متمم للقرآن الكريم في هذا الميدان⁽¹⁾.

وأثر الحديث في اللغة والأدب، كأثر القرآن فيهما، لأنه جار على مذهبه، مترسم لطريقته، نازع منزعه، ومن ذلك أنه:

1- عاون القرآن في حفظ اللغة العربية ونشرها.

2- كان لتضافر العلماء والرواة على جمعه وشرحه والاستنباط منه، وتقلهم بين الأقطار للمشافهة به وأخذه وروايته، أثر واضح في توحيد الثقافة وتربية الملكات وتقويم الألسن ونشر اللغة وتمكين الأدب.

3- وسع المادة اللغوية بتوسيع دلالات الألفاظ، وأخرجها من معنى إلى معنى آخر، بينه وبين الأول مشابهة كالألفاظ الفقهية والشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم، ومما كان له من الأوضاع المفردة كلفظة (المخيلة)

(1) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، ص 107.

مثلاً في قول لبعض العرب: "إياك والمخيلة"⁽¹⁾. فقال يا رسول الله، نحن قوم عرب، فما المخيلة؟ فقال: "سبل الازرار"⁽²⁾، وممرت الكلمة بعد ذلك على هذا الوضع يراد بها الكبر، وهذا باب واسع جداً ذو شأن في توسيع المادة اللغوية.

4- وسع الأساليب بابتكار أوضاع التراكيب الفنية، وهي مظهر أسرار اللغة وجمال البيان، وقد اتفق له من ذلك ما لم يتفق لأحد مثله في حسن البلاغة، وكلها صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي، كقوله عليه الصلاة والسلام: "بعثت في نفس الساعة"⁽³⁾، وقوله: "مات حتف أنفه"⁽⁴⁾، وقوله في حديث الفتنة: "هدنة على دخن"⁽⁵⁾، وقوله في صفة الحرب يوم حنين⁽⁶⁾: "الآن حمي الوطيس"⁽⁷⁾، وقوله للحادي أنجشة: "رويدك! رفقاً بالقوارير"⁽⁸⁾.

(1) المخيلة: الكبر، كالخيلاء. وفي الحديث: "من جر ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه".

(2) سبل الازرار: إرساله إلى الأرض.

(3) أي بعثت وقد حان قيامها وقرب، فأطلق النفس على القرب وقيل: معناه أنه جعل للساعة نفساً كنفس الإنسان، أراد بعثت في نفس وقت قريب منها أحس فيه بنفسها كما يحس الإنسان بنفس الإنسان إذا قرب منه، يعني بعثت في وقت بانته اشراطها فيه وظهرت علاماتها. ويروي في (نسم الساعة).

(4) هو أن يموت على فراشه، كأنه سقط فمات، والحتف: الهلاك.

(5) أي على فساد واختلاف وغير صفاء.

(6) حنين: موضع بين الطائف ومكة، كانت فيه الموقعة المشهورة بين المسلمين والمشركون.

(7) الوطيس: التثور، والحديث كناية عن شدة الأمر واضطرار الحرب.

(8) رويدك! امهل وتأن، والقوارير: أراد بها النساء شبيهن بالقوارير من الزجاج، لأنها يسرع اليها الكسر. وكان أنجشة يحدو وينشد القريض والرجز، فلم يأمن أن يصيبهن، أو يقع قلوبهن حداؤه، فأمر بالكف عن ذلك، أو أنه أراد أن الأجل إذا سمعت الحداء، أسرع في المشي واشتدت، فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهأ عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة.

وبلغاء العرب وان كانت تفعل ذلك، غير أنها هي أكثره إنما كانت تتسع في موجود، ولا تبتكر إلا نادراً.

- 5- دفع العلماء إلى تتبع لغة الحديث وتدوينها، فألفوا في لغة الحديث ومجازه كتباً كثيرة لا تحصى، كتب في ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى والنضر بن شميل المازني، والأصمعي وقطرب وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وثعلب، والمبرد، والخطابي، وابن الأثير، والزمخشري، والرضي، وغيرهم من أئمة اللغة.
- 6- أنشأ للثقافة العامة ثروة لا تتفد من الحكم الخالدة، والأمثال السائرة، كالأحاديث التي رويها من قبل، ونحوها كثيرة جداً، وهي للبيان حلة، وللسان قوة، وللقلب زاد، وللأدب زخر، وللحياة الطيبة معين⁽¹⁾.

(1) الأساس في تاريخ الأدب العربي ص 153.

موقف الإسلام من الشعر

قال أحدهم : " سقط الشعر بظهور الإسلام " ، وقال شاعر الرسول حسان بن ثابت الأنصاري عندما سئل عن رأيه في الشعر : " الشعر يزينه الكذب والإسلام حرم الكذب " ، ولكن على الرغم من هذا كله فلقد كان النبي محمد ﷺ بحاجة الى من يساندنه بلسانه ، لذلك كان له شاعره الخاص ، حسان بن ثابت الأنصاري وكان له مناصروه امثال كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وكعب بن زهير الذي راحوا يمدحونه ويمدحون الاسلام ويردون على المناوئين والخصوم وقد داخلت الشعر معان اسلامية كثيرة كذلك الله والبعث والثواب والعقاب والجنة والنار والايمان والكفر والتقوى والورع كما انه حفل بالفاظ وتعبير مستوحاة من ادب القرآن والحديث.

ولقد وردت لفظ (الشعر) في آية واحدة وتحدث عن الشعراء في آية واحدة ، وان الله سبحانه وتعالى اراد ان ينفي عن رسوله صفة وصفها به المشركون وهي الشعاعرية ((بل قالوا اضغاث احلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر)) وجاءت هذه صفة لان المشركين سمعوا عنه ما نزل عليه من الوحي الذين احتاروا في شأنه فنسبوه الى نوع من انواع الكلام المؤثر وهو الشعر وسجع الكهان ، وهكذا فان دعوى المشركين لا تمس الشعر مباشرة من حيث كونه شعراً وانما جاءت الآيات لإبطال هذه الدعوى التي تخص الرسول محمد ﷺ بالشاعرية وأراد الله سبحانه ان ينفي الشعاعرية عنه ﷺ لان العرب كانوا يرون في الشاعر مساً من الجن او الشياطين يوحون اليهم ثم ان الشعراء عرفوا بمسلك خلقي يتسم بالإسراف في اللهو والإقبال على الملذات المادية ثم كان نفي الشاعر امر حتمياً تفرضه السامية للدين الحنيف.

أما الموقف الخاص من الشعراء فقد جاء في قوله : " والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون " ، يقول ابن رشيقي بأن المقصود بالشعراء هم شعراء المشركين الذين تناولوا الرسول محمد

ﷺ بالهجاء والاذى واستثنى سواهم من المؤمنين (الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) ويريد بذلك الشعراء الذين وقفوا انتصاراً للرسول محمد ﷺ.

وفي ضوء ذلك فان الاسلام في موقفه انما ينبع من موقف الشعراء أنفسهم وهم فريقان: فريق بعد عن الحق ووقف الشعر يصد عن سبيل الله ويهجو رسوله ﷺ واصحابه، وفريق امن بالحق ووقف يدافع عنه راداً كيد المشركين وعلى ذلك جاءت اقوال الرسول محمد ﷺ: (انما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه) وظهر موقف الرسول محمد ﷺ من الشعر من امرين، الاول نهيه من الشعر الذي ينكر الاعراض ويثير الاحقاد ويشيد بالعصبية، والثاني غلبة الشعر على قلب المرء الذي يشغله عن دينه وإقامة فروضه وتلاوة آياته القرآنية الكريمة (لئن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً حتى يريه خير له من ان يمتلئ شعراً) وهكذا يبدو ان موقف النبي محمد ﷺ من الشعر موقفاً مشجعاً وإيجابياً في جملة هذا لا ينفي اشاداته ببعضهم ومن ذلك اباح ﷺ قول الشعر واستمع الى الشعراء واشاد بهم وانا بهم فحينما قال النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وانا لنرجو فوق ذلك مظهراً

وقد احس الرسول (ص) روحاً جاهلية في هذا البيت، فقال له، الى أين يا ابا ليلى؟ فيجيبه النابغة: الى الجنة، فيعجب الرسول ﷺ للجواب، فيقول ان شاء الله وقد قرأ كعب بن زهير قصيدة البردة عليه فلما بلغ قوله:

ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

قال له ﷺ من سيوف الله، فأصلحه كعب، ورأينا الخلفاء الراشدين والصحابة الاوائل مستمدين موقفهم من الشعر من موقف القرآن الكريم وموقف الرسول محمد ﷺ فحثوا على قول الشعر الذي يوافق الحق ونهوا عن الشعر الذي لا يوافق ذلك ويروى عن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) اعتناؤه بالشعر اذ كتب

الى ابي موسى الاشعري (مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معاني الاخلاق وصواب الرأي ومعرفة الانساب)، ويروي عن الامام علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) ديوان شعره وقف عنده الباحثون من محققي الشعر- المثبتين منه وجردوا منهم مانسب اليه من شعر وماخالط شعره الآخرين بسبب تشابه الاهداف وتسامي الروح.

وقال ابن عباس : (اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه من اشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب).

وهكذا يبدو ان موقف الاسلام من الشعر في النتيجة لم يكن سلبياً بقدر ما يكون الى جانب السيف مسارين متلازمين لخدمة الدين الحنيف.

موقف الرسول ﷺ من الشعر

إذا ما أخذنا ننظر في السنة النبوية المطهرة في الأحاديث الصحيحة خاصة، وجدنا السنة تتخذ مواقف معينة تؤيد وتؤكد موقف القرآن الكريم من الشعر، وتظهر الأحاديث النبوية مواقف الرسول الكريم محمد ﷺ من الشعر، في ضوء ذلك، فمن ناحية كان ﷺ يذم الشعر، وهو من ناحية ثانية يعجب بالشعر ويستمتع إليه ويثني على صاحبه، وهو في ناحية ثالثة يقف منه موقف الحذر فيقوم الشعر ويوجهه الوجهة الإسلامية الصحيحة.

1- ذم الشعر:

كان من الطبيعي أن يتضح موقف الرسول ﷺ من نوع معين من الشعر قيّمه وفقاً لموقف القرآن الكريم من ذلك الشعر. فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن لون معين منه وعن موضوعات خاصة لا تتعدى هجاء الذي يعني هجاء الدعوة. ومن الطبيعي أن ينصرف عن شعر العصبية والمنافرات والهجاء الذي يؤذي النفوس ويبعث الضغائن بين المسلمين، وعن الشعر الماجن الذي لا يتفق والفضائل النفسية

ويعين على الرذائل : فكل هذه الألوان من الشعر تخالف المبادئ التي قرر الإسلام أن تكون أسس مجتمعه الجديد⁽¹⁾.

فلكي يؤكد المصطفى ﷺ موقف القرآن الكريم من ذم بعض الشعر والشعراء ، وردت أحاديث عنه ﷺ في ذلك . منها ما رواه الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال : " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً⁽²⁾ " . وذكر الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره رواية أخرى لهذا الحديث " قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن الهاد عن مخنس مولى مصعب بن الزبير عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : " خذوا الشيطان- أو أمسكوا الشيطان- لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً⁽³⁾ " . وهذا الحديث وإن اختلفت الروايتان فيه إلا أنه يؤكد موقف الرسول ﷺ من الشعر المستهجن القبيح ، شعر الهجاء الشخصي الذي يؤدي النفوس ولا يحض على الفضائل ويثير الأضغان والأحقاد ، فذلك شعر مرفوض رفضه القرآن⁽⁴⁾ ، والمجتمع الإسلامي كله الذي يدعو إلى الفضائل ويبعث على الإخوة والوئام ، وروى عن أم المؤمنين عائشة ، أنها قد استدركت على أبي هريرة وذكرت نص الحديث كاملاً عن رسول الله ﷺ بما يتفق ومنهجه ﷺ وموقفه الحصيف الحكيم من الشعر المروذل البغيض ، ذلك الموقف الثابت الذي لم يختلف عن موقف القرآن من ذلك الشعر نفسه بل أكدته وأيده ، لقد قالت السيدة

(1) دراسات في الأدب الإسلامي : للدكتور سامي مكي العاني ص 15.

(2) صحيح البخاري ج 7 ص 45 ، وصحيح مسلم 1769/4 ، وانظر كذلك إحياء علوم الدين للغزالي ، ودلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني 5 ، 13 ، والعمدة لابن رشيق القيرواني 31/1.

(3) تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابن كثير 3 ص 353 (دار الفكر).

(4) شعر المخضرمين للجبوري : ص 42.

عائشة : " لم يحفظ أبو هريرة الحديث ، إنما قال رسول الله ﷺ (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هُجيتُ به) ⁽¹⁾ ، وقد أجمع المسلمون على أن الكلمة الواحدة من هجاء النبي ﷺ موجبة للكفر قالوا : بل الصواب أن المراد أن يكون الشعر غالباً عليه مستولياً عليه بحيث يشغله عن القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى وهذا مذموم من أي شعر كان ، فأما إذا كان القرآن والحديث هو الغالب عليه فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً والله أعلم.

والواقع أن هذا الحديث هو الشاهد الوحيد الذي وصل إلينا من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ في ذم الشعر وتهجينه وكان خاصاً بذلك الشعر الذي هُجى به عليه الصلاة والسلام ، وليس بين أيدينا شاهد آخر أو حديث صحيح آخر كشاهد على موقف الرسول ﷺ من الشعر ، ولا يعني ذلك أبداً أن موقف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لم يتضح أو لم تكتمل الصورة من الشاهد الأول حتى تخرج بموقف صريح من الرسول ﷺ تجاه الشعر ، بل إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الحديث وحده يكفي لتوضيح الموقف الأول من الرسول ﷺ وهو تهجين الشعر وذمه ، خاصة ذلك الشعر القبيح الذي هُجى به عليه الصلاة والسلام ، وهو موقف لا يدل على تناقض أو تعارض أو اختلاف في مواقف الرسول ﷺ حاشاً وكلاً.

ولهذا ترانا لا نقبل ما ورد إلينا من أقوال وأخبار ذكرت في مصادر الأدب وتاريخه نسبت إلى رسول الله ﷺ استشهد بها بعض مؤرخي الأدب ونقاده ، للدلالة على كراهية الرسول ﷺ لشعر امرئ القيس وذمه ، ذلك لأن الأشعار التي وردت

(1) الإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصعابة : لأبي عبد الله الزركشي (تحقيق: سعيد الأففاني - دمشق) ، ص 67 ، وانظر الدكتور العاني ص 15 ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج 15 ص 14 - 15.

في تلك الأخبار منسوبة إلى امرئ القيس ليست⁽¹⁾ صحيحة أبداً ولم ترد في قصائد الديوان الذي بين أيدينا، فقد ذكر ابن قتيبة ومحمد بن أبي الخطاب وابن منظور المصري خبراً بعضهم جعله لجهينة وبعضهم لقوم من اليمن أقبلوا منها " يريدون النبي ﷺ، فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء، إذ أقبل راكب على بعير وأنشد بعض القوم:

لما رأيت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دام
تيممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الظل عرماً طام

فقال الراكب: من يقول هذا ؟ قالوا : امرؤ القيس، فقال : والله ما كذب، هذا ضارج عندكم، وأشار إليه، فمشوا على الركب، فإذا ماء غدق، وإذا عليه العرمرض والظل يفيء عليه، فشربوا وحملوا لولا ذلك لهلكوا⁽²⁾، وتضيف بعض الروايات (وهي رواية الجمهرة) قولاً إلى النبي ﷺ مفاده أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : " أما اني لو أدركته لنفعته، وكأني أنظر إلى صفرتة وبياض إبطيه وحموشة ساقيه في يده لواء الشعراء يتدهدى بهم إلى النار"⁽³⁾، ويرد على هذه الرواية بأنه لم يثبت لدينا حديث عن رسول الله ﷺ هكذا، وإنما الحديث الذي يروى عن الرسول ﷺ بشأن امرئ القيس هو ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ولفظه : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار"⁽⁴⁾، هذا وقد تفتت مصادر الأدب في ذكر الروايات الخاصة بها في هذه القضية التي لا تسند إلى أصل صحيح، فرواية ابن قتيبة الثانية التي ذكرت في

(1) انظر : ديوان امرئ القيس تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ص 456- 457، 475- 476.

(2) ابن قتيبة : الشعراء 55/1 أدب الكاتب: ص 28، عيون الأخبار 1/143، وانظر : ياقوت في معجم البلدان (ضارج) 3/ 460 (ط. أوروبا)، ولسان العرب (ضرج) ومعجم البكري (ضارج).

(3) جمهرة اشعار العرب (ط. بولاق) ص 17.

(4) مسند الامام احمد 228/2 ومنتخب كنز العمال 300/5.

الشعر والشعراء تختلف عن الأولى وهي على هذا النحو: فقال النبي ﷺ: " ذاك رجلٌ مذكور في الدنيا شريف فيها، منسي في الآخرة خامل فيها، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار"⁽¹⁾.

وهي رواية تتفق ورواية ابن عساكر في (التهذيب)⁽²⁾، وتختلف عن رواية نشوان الحميري في (الحوار العين)⁽³⁾، التي ورد فيها: إن الرسول ﷺ قال عنه: " ذلك سيد الشعراء، وحامل لوائهم يوم القيامة، بيده يقودهم حتى يد هدى في النار".

وإذا كنا قد رفضنا قبول تلك الأخبار والروايات المصنوعة في كتب الأدب العربي القديم عن ذم الرسول ﷺ شعر امرئ القيس، فإننا نتردد كذلك فيما يرويه بعض المؤرخين القدامى والنقاد المحدثين من روايات عن رسول الله ﷺ في ذم الشعر وتهجينه وبخاصة ما رواه ابن جرير الطبري ومصطفى صادق الرافعي من أن الرسول ﷺ كان يقول رداً على من سألته في حقيقة نبوته: " ثم إنها ولدتني فنشأت، فلما نشأت بُغِضْتُ إلى أوْثان قريش وبُغِضَ إلى الشعر.." ⁽⁴⁾ وإن سبب ترددنا في قبول هذه الرواية أنه لم يَقم دليل من حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يؤيد هذه الرواية أو يكون سنداً قوياً لها. وكل ما ورد هو حديث مختلف ورد عنها ذكره الإمام أحمد ⁽⁵⁾ في مسنده وذكره الطيالسي ⁽⁶⁾ في مسنده كذلك ولفظه: " كان الشعر أبغض الحديث إلى النبي ﷺ ".

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (ط. دار الثقافة بيروت) ج 1 ص 68.

(2) التهذيب: لابن عساكر ج 3 ص 105.

(3) الحوار العين: لنشوان الحميري ص 117-118.

(4) تاريخ الأمم والملوك: للطبري (ط: الاستقامة) ج 1 ص 575، وانظر: اعجاز القرآن: الرافعي.

(5) مسند الامام احمد 6/ 134، 148، 188.

(6) مسند الطيالسي: حديث 1490.

وعلى أي حال فإن الرسول الكريم محمد ﷺ وقف موقفاً حازماً من نوع معين من الشعر المرذول الذي لا يحترم حقوق الفرد المسلم في المجتمع الإسلامي الكبير، وهذا الموقف من رسول الله ﷺ من هذا النوع من الشعر هو الحكمة نفسها حتى يكون المجتمع الإسلامي سليماً من الأمراض الاجتماعية التي يثيرها ويبذر بذرها المستهجن.

إن الشعر في نظر الرسول ﷺ كلام فحسنة حسن وقبيحة قبيح، فالشعر الحسن الذي فيه تهذيب للنفس ودعوة إلى نشر الفضائل بين أفراد المجتمع المسلم، والذي فيه حكمة بالغة تؤدي إلى دعم الصرح الإسلامي الخالد، كان يثني عليه الرسول الكريم محمد ﷺ ويقف منه موقفاً إيجابياً، ويحث المسلمين على اتخاذه وسيلة من الوسائل الكلامية للردّ على أعداء الله أعداء الدين، وظالما أن المشركين كانوا يعولون على سلاح الشعر كوسيلة فتاكة في الحرب الكلامية أو ما نسميه بالحرّوب الباردة بالمصطلح العسكري الحديث، فإن الرسول محمد ﷺ أثر استعماله وحرّض الشعراء المسلمين المجاهدين على الأخذ به والاستفادة منه في الدفاع عن حمى الدين الإسلامي الحنيف، وعن المقدسات الإسلامية وحرّمات المسلمين.

ولقد قرر عليه الصلاة والسلام أن يرد على المشركين في حربهم الكلامية ضد المسلمين، وقرر أن يفل من سلاح المشركين الذين أرادوا أن يتخذوا من الشعر سلاحاً فتاكاً يوجهونه ضد المسلمين في حروبهم معهم ولما لم يكن من المهاجرين إبان الدعوة الإسلامية من يتصدى للردّ على المشركين بأسلوبهم الخاص، فطلب من الأنصار أن يقوموا بهذه المهمة، وهم الذين آووه وأيدوه قائلين لهم: "ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلاحهم أن ينصروهم بالسنتهم؟"⁽¹⁾، فاستجاب له شعراء الأنصار في الحال، وهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك

(1) انظر: دراسات في الأدب الإسلامي للدكتور سامي العاني ص 16.

وعبد الله بن رواحة (رضي الله عنهم أجمعين)، فسُرَّ الله لاستجابتهم لطلبه ﷺ وانشرحه صدره لذلك.

وقد ذكر ابن كثير في تفسير الآية الكريمة في سورة الشعراء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْلِبُونَ﴾ "قال ابن عباس: يردون - أي شعراء المسلمين - على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد، وهذا ما ثبت في الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال لحسان: "اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك"، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل" (1).

ويمكننا هنا أن نشير إلى الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي وردت في الكتب الستة، وهي كلها تؤكد أن الرسول ﷺ أثنى على شعراء المسلمين وطلب منهم الدفاع عن المسلمين، والجهاد في سبيل إعلاء لكلمة الحق سبحانه وتعالى، والفوز برضوانه جل جلاله، من ذلك ما رواه الإمام البخاري (2) في صحيحه وما رواه الإمام مسلم (3) في صحيحه كذلك، وما رواه الترمذي (4) وابن حنبل (5) في المسند، من أن النبي ﷺ قد وجه حسان بن ثابت ؓ للدفاع عن الإسلام والمسلمين ومحاربة شعراء المشركين بشعره، وقد روى الإمام مسلم قال: "حدثنا

(1) صحيح مسلم (فضائل حسان)، 46/16، وتفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير ج3 ص355 وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ج3 ص456، 465.

(2) صحيح البخاري (بدء الخلق) 6.

(3) صحيح مسلم (فضائل الصحابة 4/2486، 2489، 2490).

(4) سنن الترمذي (أدب) 91.

(5) مسند الإمام أحمد (4/286، 289، 299، 301، 303).

عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عدي، وهو ابن ثابت قال: سمعت البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: أجههم أو هاجهم، وجبريل معك" (1) وروى الإمام مسلم كذلك قال: حدثنا يحيى بن يحيى قال: أخبرنا يحيى بن زكرياء عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قال: قال حسان: يا رسول الله ائذن لي في أبي سفيان " كيف بقرايتي منه؟ قال: والذي أكرمك لأسلتكم منهم كما تسب الشعرة من الخمير، فقال حسان: وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد" (2)

وروى مسلم في صحيحه كذلك قال: "حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث، حدثني أبي عن جدي خالد بن يزيد، حدثني سعيد بن أبي هلال، عن عمارة بن غزية عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة أن الرسول ﷺ قال: "أهجوا قریشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنبل"، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: (اهجهم) فهاجهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينهم بلساني فري الأديم: فقال رسول الله ﷺ: "لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قریش بأنسابها، وإن فيهم نسباً، حتى يلخص لك نسبي"، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلتكم منهم كما تسب الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: هاجهم حسان فشفي واشتفى"، قال حسان:

(1) صحيح مسلم (1933/4-1935)، محمد فؤاد عبد الباقي.

(2) صحيح مسلم (فضائل حسان) ج 16 ص 47.

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء⁽¹⁾

وان الأحاديث الصحيحة التي ذكرت في الكتب الستة التي تذكر دعاء الرسول ﷺ لحسان بن ثابت ؓ كثيراً جداً، فقد قال له عليه الصلاة والسلام فيها: "اللهم أيدم بروح القدس" وقد ذكرهما الإمامان⁽²⁾ البخاري ومسلم⁽³⁾ وأبو داود⁽⁴⁾ والترمذي⁽⁵⁾ وابن حنبل⁽⁶⁾ والطيالسي⁽⁷⁾ في مسنده، ولقد أوردت مصادر الأدب العربي هذا الدعاء وان كانت قد اختلفت رواياتها فيه، فقد أورده محمد بن أبي الخطاب⁽⁸⁾ وابن رشيق⁽⁹⁾ القيرواني في مؤلفيهما الشهيرين: جمهرة أشعار أشعار العرب والعمدة في نقد الشعر وآدابه.

ولقد انفردت مصادر الأدب العربي، مثل كتاب (العمدة لابن رشيق القيرواني بأقوال ينسبونها - والحجة عليهم - إلى رسول الله ﷺ يستشهدون بها على توجيه رسول الله ﷺ للشعراء المسلمين الذين أولعوا بحب الشعر وقويت عندهم الملكة الشعرية في الاستفادة من تلك الملكة، التي هي سلاح ذو حدين قد يفيد في أغراض الخير والمساهمة في إصلاح المجتمع وبنائه خير البناء، وقد يكون أداة هدامة إذا ما أسيء استخدام تلك الملكة الشعرية. يروي ابن رشيق في هذا

-
- (1) صحيح مسلم ج 16 (فضائل الصحابة) ص 48-51.
 - (2) صحيح البخاري (الكتاب الثامن). الباب: 68، والكتاب 59 الباب 6، ك 64 ب 30 ك 78 ب 91.
 - (3) صحيح مسلم ك 44 ح 151-153.
 - (4) سنن أبي داود (ك 37 ب 87).
 - (5) سنن الترمذي: (ك 41 ب 80).
 - (6) مسند ابن حنبل 2/269، 4/286، 298، 299، 301، 302، 303، 5/222، 6/72.
 - (7) مسند الطيالسي حديث 730، 2309.
 - (8) جمهرة أشعار العرب (بولاقي ص 13).
 - (9) العمدة لابن رشيق 31/1.

الصدق في (باب الرد على من يكره الشعر) قولاً يؤكد به صنيع الرسول ﷺ في استغلال ملكة الشعر عند الشعراء المسلمين: "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"⁽¹⁾.

ولقد روت كتب الحديث عن رسول الله ﷺ حديثاً يبين وجهة نظره ﷺ في الشعر ومدى فائدته في المجتمع إذ هو حكمة وقد يكون حكماً، فقد روى عنه ﷺ انه قال: "إن من الشعر حكمة وحكماً"⁽²⁾. وروي عن أبي عباس عليه السلام قال: "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام فقال رسول الله ﷺ: إن من البيان لسحراً وإن من الشعر حكماً"⁽³⁾، وإن هذا القول من رسول الله ﷺ يؤكد يؤكد القيمة الفنية الهامة للشعر الحسن ودوره في بناء المجتمع السليم.

ولقد ذكرت مصادر الأدب واللغة هذا الحديث مشفوعاً بقصة مشهورة رددتها تلك المصادر، فقد رويوا: أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ جرح في غزوة من الغزوات، وكان الدم يسيل من جرحه دون انقطاع، ولم ينفع فيه ضماد، حتى جاء حسان بن ثابت فقال: ائتوني بكافور، فوضع الكافور على الجرح فجف الدم، ثم سأل النبي ﷺ حسان بن ثابت: من أين اقتبست هذا يا حسان؟ قال: من قول الشاعر:

فكرن ليلة وصلها في هجرها فجرت مدامع مقلتي كالعندم
فطفت أمسح مقلتي بخدّها إذ عادة الكافور إمساك الدم

(1) العمدة 1/ 30.

(2) صحيح البخاري 47/8 وسنن أبي داود الترمذي (ك 41 ب 69)، وسنن ابن ماجه (ك 33 ب 41) وسنن الدارمي (ك 19 ب 70) ومسنند الامام احمد بن حنبل 1/ 269، 303، 309، 313، 327، 323، 456/3، 125/5) ومسنند الطيالسي حديث 556، 557، 2670.

(3) سنن أبي داود 277/5-278، البخاري 42/8.

فقال النبي ﷺ : " إن من الشعر لحكمة " (1).

وذكر الماوردي كذلك في كتابه (أدب الدنيا والدين) رواية لهذه الكلمة.
ففيه : ان النبي ﷺ أنشد عنده الأعرابي "
وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم
تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل
فإن الذي يؤذيك منه سماعه
وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي ﷺ : " إن من الشعر لحكمة ، وان من البيان لسحرا " (2).

والحقيقة التي لا مرأ فيها ولا جدال أبداً أن الرسول الكريم ﷺ كان يقدر الشعر في مجالس السلم والحرب، ويعتقد اعتقاداً يقيناً أن مهمة الشعر والشاعر المسلم في المجتمع الإسلامي مهمة شاقة، وأنه يلعب دوراً هاماً إصلاحياً في خدمة الدين واث الفضائل بين المسلمين، وان الشاعر المسلم داعية مجاهد يجاهد بسيفه ولسانه، لا يستغني عنه مجتمعه أبداً لأداء مهمته، ولهذا أثر عن رسول الله ﷺ انه قال: " إن هذا الشعر سجع من كلام العرب، به يُعطى السائل، وبه يكظم الغيظ، وبه يؤتى القوم في ناديمهم (3). فكان عليه الصلاة والسلام يعرف مهمة الشعر في (الحياة العربية وانه ديوان العرب وسجل مفاخرها، فحاول ان يوجه هذه الأداة التي يحسن العرب استعمالها ولا يستطيعون الاستغناء عنها إلى حيث يخدم الفكرة وينصر الدين ويبعث الفضائل الكامنة في نفوس العرب " (4).

(1) جمهرة اشعار العرب : (بولاقي ص12)، وإحياء علوم الدين للغزالي، والعمدة لابن رشيق 27/2، وزهر الاداب للحصري 1 والمزهر 291/2، وتاج العروس (حكم).

(2) أدب الدنيا والدين للماوردي ص116 (الطبعة الأولى 13/7هـ)، المرزباني معجم 107، والأضداد : للأنباري 327، الصاحبى 23.

(3) طبقات الشافعية للسبكي 1/134.

(4) في الأدب الإسلامي : د. العاني، شرح التبريزي للحماسة 3/1.

وإن القاعدة التي لا يمكن أن تستنتج من موقف الرسول ﷺ من الشعر هي أن الرسول ﷺ نظر إلى الشعر على أنه سلاح ذو حدين، فمنه الحسن، ومنه القبيح، فما جرى من الشعر مع الحق وسار في ركابه فهو الجدير بال العناية والتشجيع، وما لم يوافق الحق وابتعد عنه فهو قبيح يجب تركه والابتعاد عنه، وفي هذا الصدد يذكر ابن رشيقي القيرواني قولاً للرسول ﷺ في الشعر أنه قال: "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه". وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب" (1).

وعلى أية حال فإن الرسول ﷺ كان يقف موقفين من الشعر الصادر عن الشعراء المسلمين خاصة وكلاهما مبني على أساس إصلاح حال المسلمين في المجتمع الإسلامي الكبير.

والموقف الأول كان يحرص فيه الرسول الكريم ﷺ على إرشاد الشعراء المسلمين وتوجيههم الوجهة الإسلامية الصحيحة في إنشاء الشعر، فيوقفهم على قيمة الإسلام ومبادئه والشعور بالمسؤولية في تبليغ هذه المثل والقيم الإسلامية إلى المسلمين. وهي مثل تحض على التمسك بمبادئ الدين الإسلامي، ونبذ العصبية والمثل الجاهلية البالية، والابتعاد عن الأمراض الاجتماعية التي تتفشى في المجتمعات غير الإسلامية من عبث وخلاعة ومجون وفساد أخلاق، مما لا يقبله الدين الإسلامي الحنيف، بل يحاربه وينهى عنه ويحرمه، وكأنما كان الرسول ﷺ يتمنى في الشاعر المسلم أن يأخذ نصيبه الأوفى من مسؤولية الداعية المسلم المجاهد في الجهادين الأصغر والأكبر.

أما الموقف الثاني لرسول الله ﷺ من الشعر الصادر عن الشعراء المسلمين فيبدو واضحاً جلياً فيما كان يفعله ﷺ مع شعراء الدعوة الإسلامية إذا ما بدر

منهم، أو لوحظ عليهم خروج عن المنهج الإسلامي في تقصيد القصيد، كان عليه الصلاة والسلام يوجه ويحذر وينبه شعراء المسلمين بما يجب تركه إذا ما أحسوا في شعرهم بعض الخروج عن القاعدة الإسلامية في إنشاء الشعر.

إن الأمثلة كثيرة جداً التي توضح الموقف الأول لرسول الله ﷺ من الشعر الإسلامي الحسن، فكثير من أولئك الشعراء المسلمين نالوا حظهم من تشجيع الرسول محمد ﷺ على شعرهم الحسن وأثنى عليهم شأماً عطراً منه ﷺ، وربما كان حسان بن ثابت ؓ شاعر النبي ﷺ أسعد الشعراء المسلمين وأوفاهم حظاً من تشجيع الرسول ﷺ والشاء عليه، ذلك التشجيع والشاء اللذان تمثلتا في الأحاديث التي روتها كتب الحديث الشهيرة، بل لقد بلغ إحسان رسول الله ﷺ لشاعره حسان بن ثابت الأنصاري ؓ كان يضع له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر أو ينافح عن رسول الله ﷺ فيما ترويه السيدة عائشة عنه ﷺ وكان يقول ﷺ " إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله " (1).

ولقد روت كتب الحديث الصحيحة أحاديث كثيرة (2) تؤكد أن رسول الله ﷺ قد سمح لحسان بن ثابت ؓ أن ينشد الشعر في المسجد، بل وكان يدعو له كذلك. ومن تلك الأحاديث أحاديث ثلاثة رواها الإمام مسلم في صحيحه عن عمرو الناقد وإسحاق بن إبراهيم وابن أبي عمر كلهم عن سفيان قال عمرو: حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أن عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير

(1) سنن أبي داود ج 5 ص 280.

(2) انظر صحيح مسلم 45/16، وسنن أبي داود (ك 37 ب 87)، وسنن الترمذي (ك 41 ب 70)،

ومسند أحمد بن حنبل 222/5، 6، 72.

منك . ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول:
أجب عني اللهم أيده بروح القدس" قال اللهم نعم" (1).

وتروي مصادر الأدب العربي روايات مختلفة عما روته كتب الحديث عن
صور تشجيع الرسول ﷺ لشعر حسان بن ثابت ؓ ودعائه له ﷺ . من ذلك ما رواه
أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني) أن النبي ﷺ سأل ليلة - وهو في سفر-
"أين حسان بن ثابت ؟" ، فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال: (أُحْدُ)
فجعل ينشد والنبي ﷺ يصغى إليه ، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى
كان رأس الراحلة يمس الورك ، حتى فرغ من نشيده . فقال النبي ﷺ : " لهذا
أشدُّ عليهم من وقع النبل" (2) . ومن ذلك التشجيع النبوي الكريم لحسان بن ثابت
ﷺ ما رواه ابن رشيقي القيرواني في كتابه (العمدة في نقد الشعر وآدابه) وقد ذكر
ابن رشيقي أن الرسول ﷺ قضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة وسبب ذلك شعره
. يقول ابن رشيقي في باب (من قضى له الشعر ومن قضى عليه) : وأنشده حسان بن
ثابت حين جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث بقوله:

هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ

فقال له: جزاؤك عند الله الجنة يا حسان، فلما قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءُ

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 45/16 ، لقد سمح له بالانشاد في المسجد على الرغم من
الأحاديث الكثيرة التي تنهى عن تناشد الاشعار في المساجد. انظر: سنن أبي داود (م 37
ب 37)، وسنن النسائي 8 ب 23، 24 ، وابن ماجه 30/204 ، وموطأ مالك 9 ح 93 ، وسنن
الدارمي 15 ، 6 ومسنند زيد بن علي ح 839 ومسنند ابن حنبل 434/3 أما بروكلمان لقد شك
في هذا الحديث (تاريخ الأدب العربي 153/1).

(2) الأغاني 136/4.

قال له : وقاك الله حرّ النار، فقتضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة، وسبب ذلك شعره" (1).

ولقد كان هذا هو صنيع رسول الله ﷺ مع كل شاعر إسلامي ملتزم بمبادئ الإسلام ومثله العليا، وكان ﷺ يقدر الشعر الخالي من شوائب الوثنية الجاهلية، ويقف منه موقف المشجع ويكافئ صاحبه بالدعاء الكريم منه ﷺ مثلما كان يفعل مع حسان بن ثابت ؓ. فمن ذلك ما فعله ﷺ بشعر عبد الله بن رواحة ؓ فيما يرويه النسابة ابن عبد البر "أن النبي ﷺ دعا يوماً عبد الله بن رواحة وقال له: "قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك" فانبعث عبد الله بن رواحة يقول:

إني تفرستُ فيك الخيرَ أعرِفهُ والله يعلم أن ما خانني البصرُ
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدرُ
فثبت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فدعا له رسول الله ﷺ بقوله: "وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة" (2).

وحقاً فإن ابن رواحة المجاهد الشهيد والصاحب الجليل ؓ شجعه رسول الله ﷺ كثيراً ونال من الدعاء والاستحسان لشعره والإحسان له ما ناله حسان بن ثابت ؓ. فمن تشجيعه له كذلك لشعر ابن رواحة الحسن الهادف البناء ما رواه ابن هشام في (السيرة النبوية) قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العمرة - عمرة القضاء أو عمرة القصاص في ذي القعدة سنة سبع - دخلها وعبد الله رواحة أخذ بخطام ناقته يقول:

(1) العمدة 53/1.

(2) الاستيعاب : لابن عبد البر (ج3 ص900).

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فِكْلَ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفْ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ⁽¹⁾

ويكفي ابن رواحة تشجيعاً ومحبة من رسول الله ﷺ انه قال عنه فيما رواه أبو هريرة : " إن أخاكم لا يقول الرفث " ⁽²⁾ يعني بذلك ابن رواحة ؓ وقد قال قصيدة يردّ فيها على قيس بن الخطيم:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقعُ
بيتٌ يجاء في جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ
وأعلم علماً ليس بالظنّ أنني إلى الله محشورٌ هناك وراجع

وكان ممّن ناله التشجيع والتقدير من الرسول الكريم ﷺ نابغة بني جعدة الذي هذب الإسلام نفسه، وقد قال بيتين أمام رسول الله ﷺ هما:

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدر
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدر

ويروي الرواة في مصادر الأدب أن النبي ﷺ كافأه بدعائه الكريم له بعد ذلك: " لا يفضض ⁽³⁾ الله فاك ". ويروي الرواة كذلك أن النابغة الجعدي عمّر طويلاً لم تنفض له ثنية، ففضت له دعوة النبي ﷺ بالصحة والسلامة وسبب ذلك

(1) السيرة النبوية لابن هشام (القسم الثاني ص 371).

(2) صحيح البخاري 46/2، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج7.

(3) الشعر والشعراء 208/1-209، جمهرة اشعار العرب (بولاق ص148) مجالس ثعلب 595/2، والعقد الفريد 276/5، شرح الانباري للمفضليات 681-82.

شعره . ويبدو أن النابغة الجعدي ربما استفاد من ثقافته الإسلامية، إذ أن المعنى الذي تناوله الجعدي في بيتيه إنما هو تضمين لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ خُذِ الْعَقَوْ وَأُمُّهُ يُأْعَرْفُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ⁽¹⁾ وهو كذلك تضمين لقوله تعالى ﴿... وَالْكَافِرِينَ الْفَظِطُ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ⁽²⁾ . وربما استفاد كذلك الجعدي من أحاديث رسول الله ﷺ التي تحض على الحلم وتتهى عن الغضب، من ذلك ما رواه أبو هريرة عنه ﷺ قال: " ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " ⁽³⁾ . وقال الإمام أحمد، عن عبد الله مسعود، قال رسول الله ﷺ: " ما تعدون الصرعة فيكم " لاقلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: " لا ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب " . وأخرج الإمام عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: " من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء " . وروى عن أبي هريرة ؓ في قوله تعالى: ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْفَظِطُ ﴾ أن النبي ﷺ قال: " من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ جوفه أمناً وإيماناً " ⁽⁴⁾ .

ومن الهام جداً أن نلاحظ أن تشجيع رسول الله ﷺ لم يكن مقصوراً على فئة من الشعراء المسلمين دون غيرهم بل امتد لتشجيعه عليه الصلاة والسلام إلى كل شاعر مسلم أحسن في شعره والتزم بالمنهج الإسلامي في ركب الدعوة الإسلامية . ولقد كانت عاداته ﷺ فيما يرويه أصحاب السيرة أنه إذا كان في مسيرة ما طلب من الشعراء أن ينشدوا شعراً ليطمئن عليهم وليعرف حقيقة شعرهم، وهذا ما فعله عليه الصلاة والسلام في مسيره إلى خيبر سنة سبع . وقد روى ابن هشام في سيرته خبراً يؤكد به صنيع رسول الله ﷺ هذا . قال ابن

(1) الأعراف: 199.

(2) آل عمران: 134.

(3) مسند الإمام أحمد بن حنبل.

(4) انظر: مختصر تفسير ابن كثير 319/1.

إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الأسلمي أن أباه حدثه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع، وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، وكان اسم الأكوع سنان: " أنزل يابن الأكوع، فخذ لنا من هاتك"، قال فنزل يرتجز برسول الله ﷺ، فقال:

والله لو لا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكرة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: " يرحمك (1) الله"، فقال عمر بن الخطاب: وجبت والله يا رسول الله، لو أمتعتنا به لا فقتل يوم خيبر شهيداً".

ومن الشعراء الإسلاميين الذين أثنى رسول الله ﷺ على شعرهم لبيد بن ربيعة العامري، فقد روى أبو هريرة ؓ عنه أن رسول الله ﷺ قال: " أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد" (2): " ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم". وكان كعب بن زهير كذلك من الذين نالوا تقدير رسول الله ﷺ وتشجيعه. ذلك أن كعباً عدل عن المنهج الجاهلي وأسلم وأعلن توبته أمام رسول الله ﷺ، تلك التوبة التي نال كعب عليها بشعره بردة المصطفى ﷺ. وقد مدح رسول الله ﷺ بما فيه معلناً خروجه عن المنهج الجاهلي في المديح فإذا مديحه له له صبغة إسلامية صرفة: "يقول فيها - أي كعب - بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجلته:

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

(1) السيرة النبوية (القسم الثاني ص 328-329).

(2) روى هذا الحديث الإمام البخاري والترمذي في مسنده انظر صحيح البخاري 43/8.

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيط وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم أذنب، ولو كثرت في الأقاويل⁽¹⁾

ويعلق ابن رشيقي بقوله : " فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله ، وما كان ليوعده على باطل ، بل تجاوز عنه ووهب له بردته ، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم وقال العتبي : بعشرين ألفاً ، وهي التي توارثها الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد تبركا بها وذكر جماعة - منهم عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الشاعر - انه أعطاه مع البردة مائة من الإبل .."⁽²⁾

والذي يبدو ان الرسول ﷺ أدرك أن الأغراض الشعرية التي طرقتها العرب لن يهجروها بالأمر والنهي، ولذلك فإنه ﷺ لم يحرم الشعر ولم يحدد الأغراض الشعرية، بل ترك للشاعر الحرية المطلقة في عصره، وان كان قد عاقب على الأذى وأثاب على المديح، فان الرسول أمر جماعة من الأنصار بقتل كعب بن الأشرف لأنه : " بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله ﷺ ونساء المسلمين"⁽³⁾.

الرسول والاستماع للشعر

وكان ﷺ يعجبه الشعر ويمدح به، فيثيب عليه ويقول: " هو ديوان العرب"⁽⁴⁾.

ويستمع إلى شعر المسلمين، ويبيدي ارتياحاً إليه، وسروراً به، ويشجع الناس على استماعه، كما ورد في قصة قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد)، وكان

(1) انظر: شرح ابن الانباري لقصيدة البردة (الطبعة الأولى تهامة 1400هـ) ص 110-111.

(2) العمدة: 23/1 - 24؛ دراسات في أدب الدعوة الإسلامية، ص 84.

(3) طبقات الشعراء : 238.

(4) الجمهرة: 30.

من أسباب فتح مكة استنصار عمرو الخزاعي بالنبي ﷺ - كما في سيرة ابن هشام- بأبيات منها:

- يا ربِّ إني ناشدُ مُحَمَّدًا حلفاً أبينا وأبيه الأتلا(1)
 قد كنتم ولداً وكنّا والداً ثمّت أسلمنا فلم تنزع يدا(2)
 فانصر- هداك الله- نصرأ اعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا(3)
 فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تريدا(4)
 في فيلق كالبحر يجري مزيدا إن قريشاً أخلفوك الموعدا(5)
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رسدا(6)
 وزعموا أن لست تدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
 هم يبتؤنا بالوتير هجدا وقتلوننا زكعاً وسجدا(7)

(1) ناشد: طالب وذكر، والأتلد: القديم.

(2) يريد أن أم بني عبد مناف من خزاعة، وكذلك قصي أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية والولد (بالضم): بمعنى الولد (بالتحريك). واسلمنا: من السلم. قال السهيلي: "لأنهم لم يكونوا آمنوا بعد. غير أنه قال: "ركعاً وسجداً" فدل على أنه كان فيهم من صلى الله فقتل".

(3) اعتد: من العتيد، وهو الحاضر، المدد: العون والنجدة.

(4) تجرد: من رواه بالحاء المهملة، فمعناه: غضب، ومن رواه بالجيم، فمعناه: شمر وتهيا للحرب وسيم: طلب منه وكلف، الخسف: الذل، تريد: تغير إلى السواد.

(5) الفيلق: الجيش.

(6) كداء- بوزن سحاب- موضع بأعلى مكة، ورصد: كركع - جمع راصد: وهو الطالب للشيء الذي يرقبه.

(7) الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة، والهجد: النيام، وربما استعمل في المستيقظين فهو من الاضداد، تنظر الأبيات في أسد الغابة (3929)، الإصابة (5851)، الاستيعاب 3/ 260.

قال رسول الله ﷺ: "نصرت يا عمرو بن سالم"، وخرج بمن معه لنصرهم.

وكذلك عندما جاءه شاعر هوازن يستعطفه للإفراج عن قومه الذين وقعوا أسرى بأيدي المسلمين بعد حنين، فقال من قصيدة له:

أَمْثُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَإِنَّكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَدَّخِرُ

أَمْثُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ قُوكَ يَمْلُؤُهُ مِنْ مَخْضِهَا الدُّرُّ⁽¹⁾

أَمْثُنْ عَلَى نِسْوَةٍ أَعْتَقَهَا قَدْرٌ مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرٍهَا غَيْرُ

إلى أن يقول:

هَالِبَسَ الْعَفْوَ مَنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ مِنْ أُمَهَاتِكَ إِنَّ الْعَفْوَ مَشْتَهَرُ

إِنَّا نُوْمِلُ عَفْوًا مِنْكَ ثَلِيْسُهُ هَذَا الْبَرِيَّةُ إِذْ تَعْفُو وَتَتَصَرُّ

فَاعْفُ عَمَّا اللَّهُ عَمَّا أَنْتَ وَاهِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ يَهْدِي لَكَ الظُّفْرُ

تأثر النبي ﷺ بما سمعه تأثراً جعله يسأل أصحابه أن يطلقوا سرح أسراهم، وأن يردّوا عليهم ما غنموه منهم، فاستجاب المسلمون لرغبته، وفكّوا عنهم، وأعادوا إليهم مواشيهم، وما أخذوا من منازلهم⁽²⁾.

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي ﷺ وهو يطوف، وكان قد قتل

أباها، فاستوقفتها، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته أبياتاً مطلعها:

يَا رَاكِباً إِنَّ الْأَثِيلَ مِظَنَّةٌ مِنْ صَبْحِ غَادِيَةِ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ⁽³⁾

إلى أن قالت:

(1) المخض: اللبن. الدرة: اللبن أو كثرته.

(2) الكامل لابن الأثير 2: 142، الأدب الإسلامي د. نايف معروف 144-145.

(3) الأثيل: موضع بعينه قتل فيه النضر.

أَمْحَمَّدُ هَا أَنْتَ نَجْلُ نَجِيبَةٍ مِنْ قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلُ مَعْرُقٍ⁽¹⁾
 مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا مِنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَفِيزُ الْمُحْنَقُ⁽²⁾
 النَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ قَتَلْتَ وَسِيلَةً وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عَتَقَ يَمْتَقُ

فقال النبي ﷺ: " لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلتها " ⁽³⁾.

وحين انشده ضرار بن الأزور أبياتاً أبدى ﷺ إعجاباً بها وفيها يقول:
 خَلَفْتُ الْقَدَاحَ وَعَزَفْتُ الْقِيَا نِ وَالْخَمْرَ أَشْرَبْتُهَا وَالْثَمَالَ⁽⁴⁾
 وَكَرَّرِي الْمُحَبَّرَ فِي غَمْرَةٍ وَجَهْدِي عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْقِتَالَ⁽⁵⁾
 وَقَالَتْ جَمِيلَةٌ: شَتَّتْنَا وَطَرَحْتَ أَهْلَكَ شَتَّى شَمَالَا
 فَيَا رَبِّ، لَا أَغْبَنَنَّ صَفْقَةً فَقَدْ بَغَتْ أَهْلِي وَمَالِي بِدَالَا

فقال الرسول ﷺ: " ربح البيع، ما غِبْتُ صَفْقَتَكَ يَا ضِرَارَ " ⁽⁶⁾

إدراك الرسول ﷺ لقيمة الشعر في الحياة الإسلامية

(1) معرق: أصيل.

(2) من: صفح. المحنق المملوء بالمفيط.

(3) انظر السيرة النبوية ق/2/ 42. الأغاني 30/1. زهر الآداب 1: 66، الاستيعاب 4: 458.

(4) القداح: ج قدح وهو السهم قبل أن يراش، وأن يثبت فيه النصل.

التمال: ج ثمالة وهي الزيدة، كنى بتركها عن ترك التعم والرفاء إلى الحرب.

(5) المحبر: جواد سابق لضرار بن الأزور. انظر الاستيعاب 2: 299.

(6) ويبدو أن هذا الشاعر لم يثبت على دينه هو الذي قتل مالك بن نويرة يوم اليمامة بأمر خالد بن الوليد سنة ثلاثة عشر في خلافة أبي بكر، ويقال أنه ممن شرب الخمر مع أبي جندب في زمن عمر (الإصابة 2/ 200).

لقد عرف الرسول ﷺ قيمة الشعر ومهمته في الحياة الإسلامية الجديدة، ومدى أثره فيها ونفاذه إلى الأعماق، فاستفاد من هذه الأداة التي يحسن العرب استعمالها في موضعها في حماية العقيدة، ونصرة الدين والتبليغ للفكرة بين القبائل. ومن أجل ذلك كان موقفه هذا الذي نعرفه من شعراء الأنصار ومن تشجيعهم. وحتى قصيدة كعب بن زهير على الرغم من أنها تكاد تخلو من الروح الدينية أو الشر الروحي، إلا أنها لقيت صدى عميقاً في تنفس الرسول ﷺ، لأنه صلوات الله عليه وآله يسعده أن يرى هناك ميلاً عن الجانب الجاهلي إلى الجانب الإسلامي، وانتقالاً للقوة الفنية عند كعب من مجراها الجاهلي في العصبية والتفاخر إلى مجراها الإسلامي في دعم الدعوة، والتمكين لمثلها الرفيعة في نفوس الناس، فحين وضع الرسول ﷺ البردة على كتفي كعب، كان يضعها في الوقت نفسه على أكتاف كل الشعراء النادمين، الذي أحسن النبي ﷺ تمزقهم وخجلهم، ويكون قد أسلمهم للعالم الجيد من غير النظر إلى الماضي والإشغال بما كان فيه. فالقيمة الفنية عند الرسول ﷺ هي قيمة ترتبط بمعاييره الخلقية، وإذا كان للإسلام موقف من الشعر، فإنه لم يحرمه فناً، ولنتذكر أن الإسلام من الناحية الفنية الخالصة قد قدم للشعر فرصة ذهبية للتجدد والنمو، والتوسع والتعمق، لم تتح له لولا مجيء الإسلام.

فكان لزاماً على الشاعر أن يتحمل مسؤولية المهمة التي أنيطت به في ظل الرسالة الكريمة التي وضعت الضوابط المناسبة لكي يُسهم الشعر بدوره في معركته، فكان الالتزام بمبادئ الرسالة وتعاليمها النبيلة يمثل خلاصة الموقف الذي حدده الإسلام للشعراء، بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء 224-226.

فالإسلام جاء لهداية البشرية إلى طريق الخير والرشاد، وكان من الطبيعي أن يحدد موقفه من الأمور بوضوح ودقة، فالشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مكانتهم وقيمتهم في الإسلام، أما سواهم فلا مكان لهم في دولته، وهم مطرودون منها لا محالة.

موقف القرآن الكريم من الشعر

إن القرآن الكريم إذا تدبره الباحث وجده في موضع واحد منه يبين موقفه في سورة الشعراء خاصة، أما بقية الآيات التي تحدثت عن الشعر أو ذكرت فيها لفظة (شعر) و(شاعر) فهي خمس آيات. قال تعالى في الآية الأولى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْتَرَنَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِأُنْبَاءِ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾⁽²⁾، وقال تعالى في الآية الثالثة: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تَنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُومُ﴾⁽³⁾، وقال تعالى في الآية الرابعة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرِصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾⁽⁴⁾، وقال تعالى في الآية الخامسة: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا نُوْمِنُونَ﴾⁽⁵⁾.

ولقد جاءت تلك الآيات الخمس لا لتبين الموقف الإسلامي من الشعر فحسب بل لتبين عنيت المشركين وسفسطاتهم وافتراءاتهم على رسول الله ﷺ بأنه شاعر أو كاهن أو ساحر، وقد ردّ الله على جميع افتراءاتهم، وتبين وتؤكد أن القرآن الكريم كلام الله العزيز، وحي أوحاه الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله.

ويبدو أن القرآن الكريم قد وقف من الشعر والشعراء موقفين متميزين رئيسيين، كان أحدهما في بداية الدعوة الإسلامية، عندما هاجم القرآن الكريم الشعر والشعراء الذين وقفوا حجر عثرة في سبيل نشر الدين الإسلامي، وقد تمثل ذلك الموقف في الآيات القرآنية التي وردت في موضع واحد في القرآن الكريم وبخاصة في سورة الشعراء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٣٦)

(1) سورة الأنبياء: الآية 5.

(2) سورة يس: الآية 69.

(3) سورة الصافات: الآية 36.

(4) سورة الطور: الآية 30.

(5) سورة الحاقة: الآية 41.

أَلَزَّزْنَاَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٧﴾^(١)، وكان ثاني الموقفين يتمثل في فترة الغزوات وفترة اتساع رقعة الدعوة الإسلامية، عندما كان القرآن يشجع الشعراء المسلمين في سبيل نصره الحق والدين ومؤازرة المسلمين في كفاحهم ضد الوثنية والكفر والشرك.

لقد كان المسلمون بحاجة ماسة إلى أن يقاتلوا المشركين باللسان، كما كانوا يحاربونهم بالسيف والسنان، وبعبارة أخرى رأى المسلمون أن يحاربوا أعداءهم المشركين بالأسلحة نفسها التي كان المشركون يعرفونها عن خصومهم، وأن يستعملوا اللغة نفسها التي كان المشركون يفهمونها آنذاك ألا وهي لغة الشعر، ولقد أدى الشعر الإسلامي دوره في تلك الفترة من التاريخ، وبانتهاء فتح مكة والطائف ودخول الذين كانوا بالأمس مشركين وأصبحوا بعد الإسلام إخوة للمسلمين، حينئذ أصبح دور ذلك اللون من الشعر ذي السلاح الحاد وأعني به شعر الهجاء الشخصي غير مرغوب فيه، وأصبح التفكير في اجترار^(٢) ذلك اللون من الشعر الذي يثير الضغائن وآلام الماضي بعد أن عفى الإسلام عليه بعفوه وتسامحه أصبح إثمًا من الآثام، وهنا ينبغي أن لا يفهم أن دور الشعر قد توقف تماماً بانتهاء الغزوات، بل لقد استمر الشعر الإسلامي الملتزم الهادف يؤدي عمله إلى بناء المجتمع الإسلامي السليم، وسيبقى كذلك أبد الدهر، بإذن الله ما بقي الإسلام إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ولكي يتضح موقف القرآن أكثر فأكثر هناك حقائق هامة توضح ذلك وتقريه وتفصح عن الحقيقة فيه.

أولاً- أن القاعدة الهامة التي لا يختلف عليها اثنان هي: أن الشعر غير النبوة أو الدين، وبالتالي طبيعة كل منهما تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى،

(١) سورة الشعراء : الآيات 224- 226.

(٢) انظر: شعر المخضرمين للدكتور يحيى الجبورى: 40.

فأهداف الشعر الجاهلي ووسائله كانت أهدافاً بشرية جاهلية خالصة للقبيلة، وهي هي العصبية العمياء للقبيلة أو القوم، تؤدي بأسلوب متكلف فيه تمويه ومبالغة وتغيير للحقائق في كثير من الأحيان، كان الشاعر الجاهلي يبالغ بل يكذب في تصوير أمجاد قبيلته تعظيماً لها وتفضيماً لجنسها وشأنها بحق وبدون حق، ومن أجل هذا لاحظ النقاد المسلمون الأوائل مثل ذلك اللون من الشعر الجاهلي الذي يبالغ فيه صاحبه بل ويكذب في بعض الأحيان فقالوا: "أعذب الشعر أكذبه"، لقد قال ابن العشرين في الجاهلية:

رَأَيْتُ الْقَوَا فِي تَلَجُّنِ مَوَالِجِهَا تَضَائِقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الْإِبْر

وأكد ذلك الجاحظ⁽¹⁾ بما رواه لأحدهم من قول:

وَلِلشُّعْرَاءِ أَلْسِنَةٌ حِدَادٌ عَلَى الْعَوْرَاتِ مَوْفِيَةٌ دَلِيلُهُ

وَمَنْ عَقَلَ الْكَرِيمَ إِذَا اتَقَاهُمْ وَدَارَاهُمْ مَدَارَةٌ جَمِيلُهُ

إِذَا وَضَعُوا مَكَائِهِمْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَذَبُوا فَلَيْسَ لَهُنَّ حِيلُهُ

ومن أجل هذا لم يكن الشعر - مهما كان سحره وبيانه - صالحاً لأن يكون رسالة نبي من الأنبياء لأمة من الأمم وبخاصة للأمة العربية، وعلى الرغم من أن العرب في جاهليتهم كانوا أمة شعر وخطابة ملكوا زمام الفصاحة والبيان إلا أنهم غلبوا على أمرهم وأعلنوا استسلامهم الكامل أمام القرآن الكريم، الرسالة الآلهية الخالدة ورسالة المصطفى ﷺ للعالمين بشيراً ونذيراً.

ولقد شاءت إرادة الله أن تكون معجزات الأنبياء السابقين لنبي الله محمد ﷺ في معظمها حسية، وكانت أكثر المعجزات بني إسرائيل حسية لبلادتهم

(1) البيان والتبيين للجاحظ ج1 ص 159، وانظر كذلك: العمدة لابن رشيق القيرواني ج1 ص 78.

وقلة⁽¹⁾ بصيرتهم فيما يقوله السيوطي، فكانت معجزة موسى ﷺ عصاه التي غلب بها بحول الله وقدرته ألوان السحر الذي برع فيه قومه، إلى جانب المعجزة الثانية وهي يده التي كان يدخلها في جيبه فتظهر بيضاء من غير سوء، فتبهرهم جميعاً بحول الله وقدرته، وكانت معجزات عيسى بن مريم ﷺ تتلخص في إبراء الأكف والأبرص وإحياء الموتى بإرادة الله ومشيتته، وكلها لا علاقة لها باللفة وإنما هي من جنس ما كان قد ألفه قوم عيسى ﷺ وبرعوا فيه ألا وهو الطب.

وشاءت حكمة الله أن تكون معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ معجزة عقلية هي القرآن الكريم كتاب الله العزيز، وذلك أن الله أراد للدين الإسلامي البقاء أبداً الدهر، فخضعت معجزته بالمعجزة العقلية الخالدة ليتدبر آياتها ذوو العقول والبصائر، وقد صح فيما يرويه الإمام البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، إنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم⁽²⁾ تابعاً".

وشاءت حكمة الله أن تكون معجزة الرسول ﷺ بلسان عربي مبين، أعجزت أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، فلم يقدر أحد على معارضة القرآن الكريم بعد تحديهم بذلك، قال الله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ...﴾⁽⁴⁾.

(1) الانتقان في علوم القرآن: للإمام السيوطي ج2 ص 116 (الحلبي 1370هـ)، وانظر: رسالة حجج النبوة للجاحظ ص 114-145، وكتاب دراسات في الأدب الإسلامي للدكتور سامي العاني ص 33-34.

(2) الانتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج2 ص 116.

(3) العنكبوت: الآية 50.

(4) العنكبوت: الآية 51.

لقد تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثل القرآن فلم يفلحوا، قال تعالى مصوراً ذلك في سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (1)، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور منه فلم يستطيعوا فيما قال الله جل جلاله في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (2)، بل لقد تحداهم بسورة واحدة منه فأظهروا عجزهم الكامل عن الإتيان بشيء أبداً، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ (3) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (4)، فلم يقدر العرب ولن يقدر غيرهم في كل عصر وزمان على شيء من ذلك كله، وأظهروا عجزهم الكامل عن معارضته والإتيان بشيء منه وهم أفصح الفصحاء والخطباء، وحقت كلمة العزيز الجبار في قوله الحكيم: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (5).

فالقرآن الكريم حقاً معجزة الله الخالدة والسلاح الماضي للرسول محمد ﷺ في تبليغ الثقلين الجن والإنس برسالة الله لتوحيده وإخلاص العبودية له سبحانه وتعالى، ونزول القرآن كان بلسان عربي مبين ليخاطب العقول ويحرك القلوب بما يثيره من انفعالات الحس ومشاهد العيان جرياً على أسلوب مخاطبة النفوس لتوجيهها وتقرير الإيمان في قلوب أصحابها (6).

(1) الطور: الآية 34.

(2) هود: الآية 13.

(3) سورة يونس: الآية 38.

(4) سورة البقرة: الآية 23.

(5) الاسراء: الآية 88.

(6) دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية، عبد الرحمن خليل إبراهيم: ص 240.

ولقد اعترف بهذه الحقيقة واستسلم لهما زعماء مشركي قريش إبان بعثة النبي ﷺ، ومن ذلك اعتراف الوليد بن المغيرة الذي ردّ على قومه المشركين آنذاك بردّ برأ فيه القرآن الكريم من التهمة التي وصمه بها المشركون بأنه شعر، معترفاً أمام القوم كذلك بأن محمداً ﷺ ليس بشاعر، قائلاً: "فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه، لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وان أسفله لمفدق، وانه يعلو ولا يعلى عليه"⁽¹⁾، واعترف لهم كذلك صراحة فقال: "لقد سمعت الشعر رجزه وهزجه وقصيده وسجع الكاهن، فما هم بزمزمة الكاهن ولا سجعه، وما هو بالشعر، وان أقرب القول ان نقول فيه: انه ساحر جاء بسحر يفرّق بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته".

ولقد بين لهم عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليماً بأنهم مخطئون فيما رموا القرآن بالسحر والكهانة، وقال لهم صراحة: إني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم، وان يظهره على العرب فملكه ملككم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك بلسانه! قال: هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم"⁽²⁾.

وعلى كل فإن إعجاز القرآن لم يكن تحدياً خاصاً بعصر أو مصر، وإنما هو عام يشمل الأزمان ويعم الأكوان، فالقرآن معجزة عامة عمّت الثقيلين وبقيت

(1) الانتان في علوم القرآن: للسيوطي: 117:3.

(2) الرسالة الشافعية للجرجاني: ص113، وانظر كذلك: في الأدب الإسلامي للدكتور سامي العاني: ص43.

بقاء العصرين ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد⁽¹⁾.

ثانياً- والحقيقة الثانية الثابتة قررها القرآن الكريم بأن النبي محمداً ﷺ لم يكن شاعراً البتة، وقد برأ الله نبيه محمداً ﷺ مما اتهمه به مشركو قريش بأنه شاعر، فأنزل الله الآيات المحكمات في كتابه العزيز تفنيداً لتلك الاتهامات قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أُنْفِثَتْ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ۝ مَاءَ أَمْنٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرَيْبٍ أَهْلُكُنْهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَجُلًا لُحِيٍّ إِلَيْهِمْ فَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾⁽²⁾، ورد الله تبارك وتعالى رداً صريحاً في سورة يس قائلًا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝﴾⁽³⁾.

وكانت تهمة الشاعرية هذه للرسول ﷺ من مشركي قريش تمثل نوعاً من أنواع المعارضة والتعنت بل والكذب إيداء للرسول محمد ﷺ، فاتهموه مرة بالسحر ومرة بالجنون وأخرى بالشاعرية، وقد تمثلت اتهاماتهم في قول الوليد بن المغيرة: "ان أقرب القول فيه أن نقول فيه إنه ساحر جاء بسحر يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته"، ومن أجل هذا التعنت أنزل الله في حق الوليد بن المغيرة حكمه الإلهي المتمثل في سورة المدثر، قال تعالى عن الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝ سَاءَ هُفُهُ، صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَسَبَرَ ۝ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝ إِنْ

(1) اعجاز القرآن: للباقلاني: ص 171.

(2) سورة الأنبياء: الآية 5-7.

(3) سورة يس: 69.

هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٣٥﴾ سَاحِلِيهِ سَقَرٌ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرُ ﴿٣٧﴾ لَا تَقِي وَلَا تَنْدُرُ ﴿٣٨﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٩﴾ عَلَيْهَا تَبَعَةٌ عَشْرٌ ﴿٤٠﴾ (١).

وكان من أنواع الأذى الذي لحف بالرسول الكريم محمد ﷺ من المشركين اتهامهم له بالشاعرية والجنون، مستخفين بنبوته ﷺ وهم يعلمون خلاف ذلك، وقد ردّ عليهم ردّاً شافياً مفنداً أباطيلهم تلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ آلَ الْهَيْتَةِ لِلشَّاعِرِ نَحْنُ نَحْنُ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾، وعلى عادات المشركين في تهكمهم واستخفافهم بقول الشعراء الذين يضلون إلى درجة المجانين عندهم في بعض الأحيان، بل وإلى درجة السحرة المردة أحياناً أخرى، حاولوا أن يستخفوا بشخص النبي ﷺ وتحينوا الفرص لهلاكه، وأُني لهم ذلك وقد حفظه الله من مكرمهم وخبثهم، ولقد عرفوا في حقيقة الأمر أنه ليس بشاعر، وإنما قالوا ذلك تعنتاً منهم ومكر السوء، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله، وقد ذكر ابن قتيبة وكذلك النبي ﷺ قبل دخول الإسلام فقال ﷺ: "اللهم إن عمرو بن العاص قد هجاني وهو يعلم أنني لست بشاعر..." (٣).

ورداً على ذلك التحدي والتريص والتعنت بل والكذب من جانب المشركين ضد رسول الله الصادق والوعد الأمين محمد ﷺ، وأنزل الله في محكم كتابه الآيات البيّنات مسجلاً عنّتهم وتريصهم هذا، متحدياً لهم في الوقت ذاته أن يأتوا بحديث مثله، إن كانوا صادقين قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُتُونِ﴾ (٣٠)

(١) سورة المدثر: الآيات 11-30.

(٢) الصفات: الآيات 35-37.

(٣) مشكل اعراب القرآن: ص 215، وكتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: ج 1 ص 115.

قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنَاصِرِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿١﴾

هذا وقد أجمل القرآن الكريم الردّ على أباطيل المشركين وادعاءاتهم على الرسول ﷺ بالشاعرية والجنون والكهانة والسحر في سورة الحاقة، مبيناً أن هذا القرآن معجزة النبي الكبرى كلام إلهي أوحى إلى نبي الله الكريم محمد ﷺ، وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن، قال تبارك الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَثَرٍ عَنَّا حَحِيْرٍ ﴿١٧﴾ وَإِنَّهُ لَشَذَرٌ لِلْمُتَفِينِ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ لَعَنَ آلِي عِيسَى ﴿٢١﴾ فَسَجَّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾﴾ (2) (3).

لقد أشار القرآن الكريم إلى جنوح خيال الشاعر وتطوافه في رسم الصور الغريب والموضوعات المختلفة، وهذا تأكيد على الفرق بين الشاعر والقرآن، أو الشعر والنثر الذي يعتمد على المنطق والتفكير السليم، والإقلال من استعمال الخيال المفرط.

وتكلم عن الشيء الذي أكده مجتمع الرسول ﷺ بأنّ الشاعر قد يدعي ما لا يفعل، ويقول ما لا يعتقد، ويذكر ما لا يملك، وهي صفة من صفات الشعر الذي يصور ما ليس بموجود بل ما يمكن أن يوجد، وهذا خلاف طبيعة المفكر أو المصلح الذي يطابق قوله عمله. أمّا الشاعر فقد يدعو إلى فضيلة وهو غير فاضل، أو يدعو إلى الرذيلة وهو خير.

(1) سورة الطور: الآيات 29-34.

(2) سورة الحاقة: الآيات 40-52.

(3) د. محمود حسن زيني، دراسات في أدب الدعوة الإسلامية، ص24.

وكان القرآن شجع الحد من هذا الميل، ومجد الشعراء الذين ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ونشم من الآية التوجيه الضمني نحو الأخلاق والأعمال الحميدة.

ومن الجدير بالذكر ان هناك آيات تنفي عن النبي ﷺ أن يكون شاعراً⁽¹⁾؛ لأن العرب كانوا يظنون أن بعض الشياطين يوحون إلى الشعراء بما يجري على ألسنتهم، لذا أصرّ المشركون على إلصاق هذه الصفة بالنبي ﷺ، وهم يتصدون من وراء ذلك تكذيب رسالته⁽²⁾.

وعليه فإن القرآن الكريم لم يصدر حكماً معيناً على الشعر كفنّ ولم يتخذ من الشعر موقفاً خاصاً، وإنما وصف القرآن الكريم الشعراء غير الملتزمين بتلك الأوصاف القاسية ليصور متاهاتهم الضالة المضلة.

(1) كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ الحاقة / 41 وغيرها.

(2) كان المجتمع في زمن الرسول يؤكد على شخصية الشاعر التي تهتم بالخيال وصياغة العواطف، وكان الشاعر آنذاك يعتبر من الذين تظهر قوتهم لا فيما يبدعونه بأيديهم، بل بما يبدعونه بقولهم وأخيلتهم، ولذلك فإن القرآن أكد قول المعاصرين للرسول نفسه حين قالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، فكان الآية العملية هي ما يميز المفكر أو القائد أو النبي، وأن الآية البلاغية هي من علم الشاعر، وقد يتهم الشاعر المفردط في أو القائد أو النبي، وإن الآية البلاغية هي من علم الشاعر، وقدي تهتم الشاعر المفردط في تأمله بالجنون، وقال القرآن عن لسان قريش: ﴿يُشَاعِرُ مَجْنُونٌ﴾، ولعل هذا يلقي الضوء على تفسير الجاهليين والمسلمين الأول لقابلية الشاعر، وأنه يتلقى العون من الشياطين أو الجن، وكانت الفكرة سائدة = - كما يبدو - في عصر الرسول حتى قال القرآن الكريم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ (221) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ الشعراء / 222.

ولذلك فإن الرسول الكريم حين خاطب حسناً أكد وجود الوحي الخارق عند شاعره، ولم يجعل القوة الخارقة في شاعره قوة شريرة.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جدوة الشعر وأشعلها إشعالاً، فإن أحداثه حلت من عقد الألسنة، وأنطقت بالشعر كثيرين ولم يكونوا ينطقون به، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعرف في الجاهلية بشعر كثير، يكثر شعراؤها، وإذا بنا إزاء عشرات الشعراء في الفتوح الإسلامية لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبل الإسلام وفتوحه، وهو يسمون جميعاً (مخضرمين) ⁽¹⁾.

خصائص أسلوب القرآن

1- مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلاصة جيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، فالقرآن يتأنق في اختيار ألفاظه، فكل كلمة توضع في مكانها كاللينة في البناء، ولا يصلح غيرها موضعها، ولو تقارب المعنى وتساوى معها في الطول والعرض؛ لأن لكل كلمة دلالة خاصة وإيحاء خاصاً وانسجاماً مع التركيب. ولا يستطيع أن يلئم بسائر الدلالات، ويوازن بيد دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق تعبير، والمصورة لخلجات النفوس، وخطرات الضمائر إلا العليم الخبير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَيَّ الْجَنَّةِينَ دَانٍ﴾ الرحمن: 54، فإن لو قال مكانه: وثمر الجنة قريب، لما قام مقامه من جهة الجنس بليين الجنى والجنيتين، ومن جهة إشارتهما بالقطاف دون لفظ الثمر، ومن جهة مؤاظة الفواصل. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ العنكبوت: 48، فإنه أحسن من التعبير (تقرأ) لثقله بالهمزة.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسِمَاهُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود: 44.

(1) من الخضرمة: وهي الاختلاط؛ لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام، فعاشوا في العصرين معاً.

فكلمة (ابلي) أفضل من (امتصي) مثلاً ؛ لأنها لا تدل على ما تدل عليه الأولى من الإسراع في التشرب، وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماءً هو ماؤها، فكأنها لم تكلف من أمرها عسراً.

ولاحظ التناسق الموسيقي بين (ابلي، واقعلي) وكلمة (استوت) دون (رست) للدلالة على الثبات المستقر، ولما فيها من الدلالة على التمكن والاطمئنان والسلام. وبناء الأفعال للمجهول : (قيل، غيض، قُضي) في نسق واحد، يترك النفوس في تيه من الحيرة، للتطلع بان هناك قوة وراء الملوك تسيطر عليه.

2- جودة سبك القرآن وإحكام سرده، فإن القارئ المتذوق حين يقرأ القرآن يستطيع أن يدرك أن تركيب الجمل القرآنية، وسبكها هو الذي يمنح كلماتها حظاً من الحياة، فهو يعتمد على الجملة : اسمية أو فعلية، مع ما يستتبع كلاً منها من مكملات، وهو بما يشتمل عليه من ألفاظ متمكنة في مواضعها، صورة لمعناها تدل عليه أبلغ الدلالة، فلتقديم الكلمة على أختها نمط من البيان، وسراً لا يفهمه إلا البصير، وتأخير الكلمة عن موضعها لدلالة يقتضيها السياق، قد تخفى حتى على أهل النظر. وحذف المبتدأ أو الخبر، مثلاً لون جديد فريد من النظم، لعل بلاغية تروق وتعجب، مضافاً إلى تجانس الأصوات فيما بينها، ثم تجانس الأصوات مع دلالاتها، ثم صلة أوائل السور بأصواتها، ثم صلة هذه الأصوات بمجموع السور الكريمة، مع ما يستتبعه من ربط الآيات بعضها ببعض وبنائها المتكامل، لذا نرى أننا لا يمكننا أن نؤخر ما قدّم ن أو نقدّم ما آخر، أو نذكر ما حذف، أو نحذف ما ذكر، أو نوجز ما أطال، أو نطنب فيما أوجز، فلكل كلمة مع صاحبها موقف، وكأنما لم يخلق تلك الدلالات غير هذه القوالب على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها.

3- الملاءمة الواضحة بين الألفاظ والمعاني من حيث جرسها وإيقاعها التي

تشكل جزءاً لا يتجزأ من كل سور القرآن الكريم وآياته، فكل سورة ظاهرتها الصوتية المعينة التي لا توجد في غيرها من السور وقد يكون للسورة - وبخاصة حينما تميل إلى شيء من الطول - أكثر من نغمة صوتية، ويتبين - دائماً - التوافق التام بين النغمة الصوتية وبين طبيعة الموضوع الذي يدور الحديث حوله.

وقد وافق القرآن- مضموناً وشكلاً، ومعنى ومبنى - طبيعة المرحلتين الرئيسيتين اللتين مرت بهما الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة، وفي المدينة المنورة بعد الهجرة، فكان قصر السور، وقصر الآيات، وكثرة الفواصل، وشدة التأثير، هي السمة الغالبة التي تتمشى مع الجو المعين، كقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ إِعْشَرَ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعِمَّاكٍ ۝٦ لِمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِنْسَانِ ۝٨﴾ الفجر 1-8.

ولما كان الاطمئنان من سمات المجتمع الإسلامي المدني اقتضى الأسلوب الجزل الهادئ، وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضع الغرض وإحكامه، واستعمال الألفاظ الرقيقة الوادعة لمخاطبة المؤمنين. وتتوارى ظواهر التوكيد والقسم والوعد والوعيد، بأسلوب تقريرى سلسن قوامه التقفية والإرشاد والتبيين، كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرٍ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٦٧﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَتَّبِعَهُم مَّرْضَاتُ اللَّهِ وَتَنْفِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْثُلُهَا ضَعِيفَةً فَإِنَّ لَهَا بُيُوتًا وَابِلٌ فَطُلُوعٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٦٨﴾ البقرة : 264 - 265.

ونلمس التوافق التام بين النغمة الصوتية وبين طبيعة الموضوع الذي يدور الحديث حوله، فالآيات التي سقت في التهويل والوعيد جاءت بنبرتها قوية رهيبة، والتي وردت في موضع اللين جاءت ألفاظها ليّنة، فهو يهيئ للمعاني ألفاظاً سحرية

متناسقة الإيقاع، ويرسم صورة حيّة لهذه المعاني تكسبها جمالاً وقوة لها أثر خلّاب في النفس، فخصائص الألفاظ تنطبق على المعنى، ويزيد على ذلك النسق الذي يسمح لكل لفظ بان تتسع شحنته من الإيقاع والصور والظلال.

4- الالتفات : وهو الانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى، كالانتقال من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب، أو من الخبر إلى الإنشاء، وهذا التوزيع يضيف على الأسلوب حياة ورونقاً، وهو من مظاهر الجمال فيه، وهو كذلك من ظواهر الأسلوب الخطابي.

وإذا دققنا النظر في الالتفاتات وبحثا في الغاية من العدول من صيغة إلى أخرى أو من موقف إلى آخر، وجدنا ان ذلك لا يكون إلا لخصوصية بلاغية، كالتهظيم أو التحقير أو التوكيد أو الإيضاح أو التوبيخ، وهو يعد لذلك من أوجه البلاغة بل من أركانها الرئيسية. ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ إِلَيْكَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ لَهُمْ أَحَدًا ۖ﴾ (١٧) وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿الكهف 47-48﴾.

فانظر كيف تواتب من المضارع إلى الماضي، ومن المعلوم إلى المجهول، ومن الغائب إلى المخاطب، ثم إلى الغائب فالمخاطب فالغائب فالمخاطب تواتباً يجعل للكلام من جلال الوصف وتهظيم الحال ما ينفرد به هذا النوع من ضروب البلاغة.

فعندما يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب، فكأنما المشهد حاضر اللحظة، شاخص نراه، ونسمع ما يدور فيه، ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه.

وآثر الماضي في (حشرناهم) بعد (نسير) و(ترى) للدلالة على تحقق الحشر التفرع على البعث الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء. وكذلك الكلام فيما عطف عليه منفيًا وموجباً.

وفي الالتفات إلى الغيبة في (عرضوا) وبناء الفعل للمجهول مع التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى ضميره ﷺ تربية للمهابة وجري على سنن الكبرياء، وإظهار اللطف به ﷺ كما لا يخفى .

ثم خاطب الكفار المنكرين للبعث: (لقد جئتمونا) واستعمل أسلوب الإضراب والانتقال من كلام إلى آخر (بل زعمتم أن نجعل لكم موعداً) وكلاهما للتوبيخ.

5- الإكثار من التمثيل وعرض الأفكار المعنوية عرضاً حسياً، وهو بعيد الوقع في النفوس، وأكثر هذه الأمثال مستمدة من مشاهد الطبيعة في البيئة العربية، أو مستقاة من حوادث التاريخ بقصد الإنذار والتذكير، أو الحث على السجايا الحميدة ومكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿وَيَنْتَظِرُ النَّاسُ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ الحج : 11، حيث صور ببلاغة أسلوبه المعاني النفيسة المجردة، أي حالة التزعزع العقيدة، فرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح توشك على الانهيار.

إنّ الخيال ليكاد يجسم هذا (الحرف) الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس أي الاضطراب الحسي في وقفاتهم وهو يتأرجحون بين الثبات والانقلاب، وهذه الصورة ترسم حالة التزعزع لأنها تنطبع في الحس وتتصل من خلال ذلك بالنفس⁽¹⁾.

وقوله تعالى لمن باعوا الهدى بالضلالة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِخَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٥١﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّتْهُمْ فِي طَلْعَتِهَا يُصْبِرُونَ ﴾ ، حيث صور حال المنافقين في تركيب صفاتهم من كذب ورياء ومداينة في إظهار خلاف ما يسترونه من كفر، بمن

(1) التصوير الفني سيد قطب : 41-42.

باعوا الحسن بالرديء، والجيد بالقبيح، وبهياة رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة فاستضاء بها ما حوله، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي هو في الظلام الدامس.

6- براعته في تصريف فن القول، ثورته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، وبمقدرة فائقة وخارقة.

7- التناصب في التنقل من غرض إلى غرض آخر، فمن وعد وتبشير إلى وعيد وتخويف وهكذا ... وهو من خلال ذلك يسخر التفكير، ويثير الوجدان، ويأخذ النفس من أقطارها، لينتهي بها إلى القناعة والهداية والإيمان.

وأخيراً الإيجاز العجيب في الكلام، حيث عبّر بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطولة نسبياً، مع ترك كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سَوَاءٌ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الزمر: 24، فانظر إلى الإيجاز في تقدير الخبر أي: (كمن هو آمن منه). وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنَبِّئُونَ بِغَيْرِهَا﴾ الاحقاف: 4، أي بكتاب أو بقية من علم الأولين تشير إلى استحقاق للعبادة⁽¹⁾.

(1) جعفر السيد الحسيني، تاريخ الأدب العربي - أدب صدر الإسلام - نقد وتحليل ص58.

خصائص البلاغة النبوية

أ- أما أسلوب الرسول ﷺ فهو السهل الممتنع والبلاغة القريبة والبعيدة والفصاحة المعجزة الرائعة، والنمط الغريب والطريقة المحكمة والنظم العجيب، كان رسول الله ﷺ يوجز غالباً، ولذلك كانت كلماته حكماً وجوامع وقال: "إنا معشر الأنبياء بكاء" ⁽¹⁾، وكان يكره الفضول والتشديق وخلاصة القول وإلباس الباطل ثوب الحق، وربما أطال صلوات الله عليه في كلامه للإرشاد والوعظ وتبليغ الرسالة، وإن كان الغالب أن يقل كلامه، ويخرج قصداً في ألفاظه، محيطاً بمعانيه. هذا إلى إحكام الأسلوب في غير تعقيد ولا تكلف، مع الوضوح والسلاسة، ومع التخيير والرونق، ومع العذوبة والجلالة، ومع الإفراغ الجيد والسبك المحكم، ومع الجزالة والقوة والإشراق وجودة التصوير والتأثير، وحسن الإفهام والمهابة، والحلاوة والروعة والقبول، ومع تجنب سجع الكهان ومن شابههم.

ب- وأما ألفاظه ﷺ فقد نفي منها الوحشي والغريب والمبتذل والساقط والمستكره ونزهت عن الخطأ واللحن والقصور، واختيرت اختيار الطبع المتمكن والفطرة السليمة فهي رشيقة جليلة قوية بليغة مشرقة عذبة تنطق عن سلامة الملكة وقوتها.

ج- وأما معانيه صلوات الله عليه فهي الحكمة الصادقة والأدب الرفيع والحق المنزه عن الريب، والهدى والنور، والرأي الناضج والبصيرة النافذة والإلهام الذي وهبه الله إياه.



(1) أي قليلو الكلام.

د- وأما موضوع حديثه وكلامه صلوات الله عليه فهو:

1- تبليغ الدعوة وتأييد الرسالة والدعوة إلى الدين الحق الخالد الذي

لا ريب فيه.

2- شرح القرآن والإرشاد إلى أحكامه وعبره وعظاته.

3- تشريع النظم الاجتماعية والسياسية وللعبادات الدينية لخير الفرد

والمجتمع والأمة والإنسانية.

4- النعي على المشركين وتقبيح ما هم فيه من عناد وضلال وبهتان

وتوجيه عقولهم وألبابهم بأبلغ بيان وأقوم حجة إلى الدين والمحجة

الواضحة.

5- تقرير الإيمان بالأنبياء والمرسلين والملائكة واليوم الآخر.

إلى غير ذلك من شتى الموضوعات النبيلة، والأغراض السامية، التي دعا

إليها الرسول الكريم، والتي هي من خصائص بلاغته ﷺ.

ولا بدع في كل ذلك، فميلاده ﷺ في بلاد العرب ونشأته في مكة،

وانحداره من قريش أبلغ العرب وأفصحهم، وتريبته في بني سعد ومخالطته للعرب

في مواسم الحج ورحلات التجارة، وتمكن البلاغة والطبع والملكة من نفسه،

والمواقف الفذة الخالدة التي شهدها الرسول ﷺ من الحرب، ومشاهد العرب

ولهجاتهم، إلى غير ذلك كله، كان من بواعث البلاغة وأسباب الفصاحة في

نفسه وحياته صلوات الله عليه.

ويقول الزيات في البلاغة والنبوة⁽¹⁾: إن بلاغة الرسول من صنع الله، وما

كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه وتقتصر مقاييسه عن قياسه،

فتحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءً وإنما نعلم خبره.

(1) وحى الرسالة/ 3/ 79.

هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة، وهلم يعلم من أسرار الروض
غير العطر والنضارة، وهل يجد في نفسه أغوار البحر غير الشعور بالجلال
والروعة، إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية . وإذا كان كلام
الله كتاب البيان المعجز، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان، وإذا كان البلاغ
صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد وحده.

ضعف الشعر

لعل أول من أثار هذه القضية هو عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة 215هـ، فقد أثر عنه أنه قال: " الشعر نكد فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره" ⁽¹⁾.

وروى المرزباني هذا القول مع زيادة حيث ذكر أن الأصمعي قال: " طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى حسان بن ثابت علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مرثي النبي ﷺ وحمزة وجعفر (رضي الله عنهما) وغيرهم لان شعره وطريق الشعر هي طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابعة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيول والافتخار فإذا أدخلته الخير لان" ⁽²⁾.

وروى له أيضاً أنه قال: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء فقال له تلميذه أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة فقال الأصمعي: تنسب له أشياء لا تصح عنه" ⁽³⁾.

ولقد تتبعت كتب القدامى في شأن ضعف الشعر في صدر الإسلام فلم أجد - فيما وقفت عليه منها - سوى أقوال الأصمعي هذه منشورة بين الكتب، وذلك باستثناء ابن خلدون الذي ذهب إلى توقف الشعر أول الإسلام حيث قال: " انصرف العرب عن الشعر في أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما

(1) الشعر والشعراء: لابن قتيبة ج1، ص224.

(2) الموشح ط السلفية القاهرة ص59.

(3) الاستيعاب لابن عبد البر ج1 ص334، وقد يقول قائل إن هناك تناقضاً بين رأيه الأول الذي رواه ابن قتيبة والمرزباني ورأيه هذا الذي رواه صاحب الاستيعاب فأقول ليس هناك من تناقض لأن الأصمعي في رأيه الأول يتحدث عن شعره الصحيح النسبة إليه وهو شعر مع ما فيه من لين يتصل بما قاله في الإسلام- لا يبعده عن الفحول أما هذا الشعر الذي عناه أبو حاتم ففيه من الركاكة والإسفاف ما يبعده عن الفحولة ولذا نفى الأصمعي ذلك.

أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك، وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه، فرجعوا إلى دينهم منه" (1).

وبديهي أن قول ابن خلدون هذا لا يتلاءم والكثرة الكاثرة من الشعر التي نجدها في دواوين الشعراء الذين واكبوا أول الإسلام وفي كتب السير والأخبار التي سجلت أحداث الإسلام الأولى وما قيل فيها من أشعار، أما أقوال الأصمعي فنستطيع أن نستخرج منها شيئين أحدهما : أنه يرجع ضعف الشعر في الطور الأول من الإسلام إلى الأغراض ذاتها، فالأغراض التي نظم فيها المخضرمون أشعارهم بعد الإسلام والمعاني التي تناولوها في هذه الأغراض هي التي أدت إلى ضعف شعرهم في الإسلام، والآخر خاص بحسان بن ثابت وهو أن جملة من الشعر الركيك المسف الذي ينسب إلى حسان ليست له وإنما هي منحولة محمولة عليه.

وإذا كان الذين جاءوا بعد الأصمعي من القدماء قد وقفوا من قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام موقف الأصمعي حيث ردوا أقواله في هذا الخصوص فإن الباحثين المعاصرين الذين قالوا بضعف الشعر في صدر الإسلام قد داروا في فلك هذه الأقوال، فكما جعل الأصمعي حسان بن ثابت نموذجاً لحديثه عن ضعف الشعر ذي المعاني الدينية جعل المعاصرون حسان نموذجاً أيضاً، وأخذوا يؤكدون ما قاله الأصمعي ترديداً أو ضمناً، فأحمد حسن الزيات نراه يقول عن شعر حسان في الإسلام ما نصه: "ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشيباً فكثر به السقط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقو إلا في الشر فلما جاء الإسلام بالخير ضعف" (2).

(1) تاريخ ابن خلدون ط مكتبة المدرسة ودار الكتاب العربي 1 ص 1122.

(2) تاريخ الأدب العربي ط دار الثقافة بيروت ص 28.

وعمر فروخ يردد الشيء نفسه فيقول: "حسان بن ثابت كثير الشعر جيدة، ومن أشهر أهل المدر غير أنه كان في الجاهلية أشعر منه في الإسلام ثم يورد قول الأصمعي الذي رواه ابن قتيبة في (الشعر والشعراء)⁽¹⁾.

وشوقي ضيف يرد على الأصمعي بالأصمعي وذلك حيث يقول: "والحق تن شعر حسان الإسلامي كثر فيه الوضع وهذا هو سبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة لا لأن شعره لاني وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال⁽²⁾ وهو تعليل قال به الأصمعي لينفي عن حسان الركافة والإسفاف التي تبعد عن الفحول ولا ينفي عنه اللين في الأشعار ذات الصبغة الإسلامية الصحيحة النسبة إليه.

وربما كان مؤلفو المفصل في تاريخ الأدب العربي أكثر الباحثين تعليلاً وإضافة في ضعف شعر حسان في الإسلام، فهم وإن لم يبعدوا كثيراً عما قاله الأصمعي فقد أضافوا تعليقات أخرى حتى بلغوا بها خمسة هي:

- 1- انبهار حسان بما قاله القرآن الكريم، ونطق به رسول الله ﷺ.
- 2- ضعف شعره في غير الهجاء للسبب نفسه الذي قال به الأصمعي في رواية ابن قتيبة.
- 3- ما علله حسان نفسه حين قيل له: لان شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام فأجاب: إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب.
- 4- إن كثيراً من شعره قاله بعد أن بلغت منه السن، والشعر صورة من صور النفس تسيح إذا ساحت.

(1) تاريخ الأدب العربي ط دار العلم للملايين بيروت ج 1 ص 326.

(2) العصر الإسلامي ط دار المعارف مصر ص 81.

5- إن كثيراً من شعره الإسلامي قاله ارتجالاً عند حدوث الواقعة الداعية إليه⁽¹⁾.

ويخرج الدكتور عمر رضا كحالة عن دائرة الأصمعي قليلاً حين يرجع ظاهرة الضعف هذه لسببين الأول: أن الجو قد تغير على الشعراء المخضرمين فلم يستطيعوا مجاراته دائماً، والثاني أن جملة من شعراء هذه الفترة كانوا مغمورين فلم يقولوا من الشعر إلا القطع في المناسبات⁽²⁾.

ولا أدري ماذا يعني يتغير الجو في عبارته السابقة فإن كان قد عني بها تغير الأغراض والمعاني فهو لم يبعد عن الأصمعي وإن كان قد عني بها التطور الهائل الذي أحدثه الإسلام في الحياة وهو تطور سريع عجز الشعراء المخضرمون عن تمثله فانه يبعد عن الأصمعي كثيراً لا قليلاً.

على أن الباحث الذي تناول القضية بشيء من الجدة والتفصيل هو الدكتور عبد القادر القط، فهو يأتي برأي جديد حين يذكر: أن هؤلاء الشعراء - وبخاصة المسلمين منهم- قد واجهوا منذ البداية عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة، وما تحمله من مظاهر التغير في الأخلاق والسلوك والقيم الاجتماعية والروحية، كما كان عليهم أن يشاركوا مباشرة مستمرة في المعركة من جانبها الكلامي، ولم يكن من اليسير على شاعر قضى الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية كحسان بن ثابت مثلاً أن يجد لنفسه أسلوباً جديداً من الشعر يحسن التعبير عن تلك القيم والقضايا الجديدة، ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل مجتمع مختلف في قيمه وقضاياها⁽³⁾.

(1) ينظر المفصل في تاريخ الأدب العربي للأسكندري وأحمد أمين ومن معهما ط الآداب القاهرة ص 107 وما يليها وينظر الأدب العربي وتاريخه ط محمد علي صبيح القاهرة ج 1 ص 64، فقد اعتمد مؤلفوه على ما قاله اصحاب المفصل بنصه.

(2) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ط التعاونية دمشق ص 89.

(3) في الشعر الإسلامي والأموي ص 12.

ويأتي بالجديد الذي لم يسبقه إليه أحد حين يقول: " أن ذلك الضعف الذي لاحظناه في الشعر الإسلامي كان قد بدأ قبل الإسلام لا بعده، كان قد انقضى عصر الفحول ولم يبق في الحقيقة منهم إلا الأعشى الذي مات قبل أن يعلن إسلامه، ولبيد الذي بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر، ولم يبق عند ظهوره الإسلام إلا شعراء مقلون بعضهم مجيد في قصائد مفردة ولكنهم لا يبلغون شأو هؤلاء الفحول⁽¹⁾."

ثم يمضي فيفرد الحديث عن حسان فيتكلم عن شعره في الجاهلية ويرى أنه يحمل مسحة مدنية تميز أسلوبه فهو يكاد يخلو من ذلك المعجم الشعري المألوف عند فحول الشعراء الجاهليين حتى ليوشك أن يكون قريب الشبه في لغته بلغة العصر الإسلامي نفسه ثم يقول: " إن هذه اللغة المدنية قد حرمت تلك النفثات النفسية والومضات الفنية الكثيرة التي نصادفها في شعر الفحول من شعراء الجاهلية."

وأخيراً يختم حديثه بقوله: " والحق أن حسان لا يمكن بحال أن يعد من هؤلاء الفحول فهو دونهم في الموهبة والمقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة، ولعلنا لو وضعناه في موضعه الصحيح بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء نضع قضية ضعف شعره بعد الإسلام في موضعها الصحيح أيضاً إذا ثبت لدينا أنه لم يكن في قمة من قمم الإبداع في الجاهلية ثم هوى عنها بعد الإسلام"⁽²⁾.

هذه هي الآراء الجديدة التي طرحها الدكتور القط في بحثه الجيد وقد حرصنا على أن نوردنا بنصها ما استطعنا ذلك حتى نمكن القارئ من الوقوف عليها من جهة، ومتابعة مناقشتنا لها من جهة أخرى.

(1) المصدر نفسه ص 13.

(2) المصدر نفسه ص 34.

ونحن قد نؤيد الدكتور القط فيما ذهب إليه في أن الشعراء المخضرمين لم يكونوا قادرين - وقد قضوا قدراً كبيراً من عمرهم في الجاهلية - على إيجاد أسلوب جديد من الشعر يحسن التعبير عن القيم والمفاهيم الجديدة مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل المجتمع الإسلامي الجديد، قد نؤيده في هذا، ولكننا نختلف معه في أن الشعر قد ضعف قبل الإسلام لا بعده، ذلك لأن شعر الفحولة لم يكن مقصوراً على أصحاب الطوال فقط، بل كان هناك شعراء عاشوا في الجاهلية، ليسوا من أصحاب السبع الطوال أو العشر ولكن شعرهم كان يمثل الفحولة بالمعنى الذي حدده القدماء، ومن هؤلاء من أدرك الإسلام، وكان له شعر رصين فيه، فقد أدرك الإسلام كعب بن زهير والحطيأة وكلاهما شاعر مجيد فحل، وضعهما ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية⁽¹⁾، وأدركه أيضاً النابغة الجعدي أول الطبقة الثالثة عند ابن سلام⁽²⁾، وهو مع ما في شعره من تفاوت لم يخرجه القدماء من أصحاب الجودة والرصانة وقد ظل يقول الشعر الجيد إلى آخر أيامه، انظر إلى هذه الأبيات التي قالها في أيام معاوية حين أخذ مروان بن الحكم ابنه وإبله لأنه كان علوي الرأي فقال:

ومروان والأنباء تسمى وتجلبُ	فمن راكب يأتي ابن هند بحاجتي
فنعم الفتى يأوى إليه المعصَّب	ويخبر عني ما أقول ابن عامر
فلإني لحراب الرجال محرَّب	فان يأخذوا مالي وأهلي لظنة
سوى الظلم إني إن ظلمت سأغضب	صبورٌ على ما يكره المرء كله

(1) طبقات الشعراء ص46.

(2) المصدر نفسه ص52.

أصيب ابن عفان الإمام فلم يكن لذي حسب بعد ابن عفان مغضب⁽¹⁾

فهذه الأبيات وإن جاءت في موضوع بعيد عن الموضوعات التي برع فيها الفحول فإنها تخفي من ورائها شاعراً مجيداً يحسن التعبير عن نفسه في كل الأمور التي تتصل به، ويملك القدرة على الشعر ولو بلغت به السن مبلغاً.

وبجانب من ذكرت أدرك الإسلام أبو ذؤيب الهذلي، وقد قال عنه ابن سلام "كان شاعراً فحلاً لا غمزة فيه" وقدمه على لبيد في الطبقة الثالثة من الفحول⁽²⁾، وأجود شعره قصيدته العينية وقد قالها بعد الإسلام وبزمن ليس بالقليل.

وأدرك الإسلام أيضاً الشماخ الذي وصفه ابن سلام بأنه "شديد متون الشعر أشد أسر الكلام من لبيد"⁽³⁾، كما أدركه المخبل السعدي وهو شاعر فحل ذكره ابن سلام في الطبقة الخامسة، مقدماً إياه على عمرو بن كاثوم والحارث بن حلزة، وعنترة العبسي وجميعهم من أصحاب الطوال، كما أدركه النمر بن تولب وضائب بن الحارث البرجمي وسويد بن كراع وسويد بن أبي كاهل، وسحيم بن عبد الحساس، وأميرة بن حرثان، وحرث بن محفض، والكميت بن معروف، وعمرو بن شأس بن بلى، وجميعهم من فحول ابن سلام⁽⁴⁾، وهم وإن كانوا لا يبلغون شأواً أصحاب الطوال فإنهم كانوا يقولون الشعر الجيد الذي يؤكد أن الشعر لم يصب بضعف في الجاهلية قبل الإسلام بل أن من هؤلاء من جاء شعره الجيد في الإسلام مثل أبي ذؤيب الذي مر ذكره، وسحيم في قصيدته الديباج الخسرواني وعميرة ودع إن تجهزت غاديا.

(1) طبقات الشعراء، ص 55.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 63.

(4) انظر المصدر السابق الطبقات 6، 8، 9، 10 من شعراء الجاهلية.

وإذن لم يكن قد بقي من الفحول سوى الأعشى الذي مات قبل أن يسلم ولييد الذي أوشك أن يكف عن الشعر، ولا يخفى علينا أن لييداً هذا الذي وصفه الدكتور القط هذا الوصف لم يكف عن قول الشعر فهم بالرغم من الروايات التي تشير إلى أنه قد كف عن الشعر فإن هناك جملة صالحة من شعره لا بد أن يكون قد قالها في الإسلام، وهذا ما جعل الدكتور شوقي ضيف يقسم شعره إلى قسمين، قسم قاله قبل الإسلام، وقسم قاله بعده، وقد لاحظ في القسم الثاني أن قراءته للقرآن الكريم قد هذبت من لفظه وأدخلت عليه غير قليل من الطلاوة الأمر الذي جعل أسلوبه في بعض قصائده الإسلامية يتميز بجمال السبك والصياغة⁽¹⁾.

ولعل الذي دفع الباحثين إلى القول بتوقف لييد عن الشعر هو تلك الرواية التي تقول: أن عمر رضي الله عنه قد كتب إلى عامله بالكوفة أن سل لييداً والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام فأجاب لييد بأن الله قد أبدله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين⁽²⁾.

وهي رواية يمكن أن نوجهها بأن عمر ربما يكون قد طلب شعراً بعينه، ولم يكن عند لييد هذا الشعر فاعتذر بما اعتذر به، أو ربما كان لييد قد تنسك في أخريات أيامه فشغله هذا التنسك عن قول الشعر، فالتنسك هو الذي دفعه إلى ترك الشعر لا دخوله في الإسلام، وإذا كان عمر قد كافأه بزيادة عطائه فإن هذه المكافأة لم تكن بسبب أن عمر يسره أن يترك الشعراء قول الشعر لأن هذا يخالف كل ما روي عنه من مواقف نحو الشعر والشعراء بل يتنافى واهتمامه بالسؤال عما أحدثه الشعراء البعيدون عنه من شعر، وإنما كان ذلك - في رأينا - بسبب أن عمر يعلم أن الشعراء حتى بعد الإسلام يستطيعون أن

(1) العصر الإسلامي ص 92.

(2) طبقات الشعراء لابن سلام ص 57.

يحققوا لأنفسهم وسيلة تزيد من دخلهم السنوي المتمثل في العطاء فلما أجابه لبيد بما أجاب رأى أن يزيد في عطائه حتى يعوضه عما يحققه غيره من الشعراء.

وبناء على ما ذكرت يصبح القول بأن الشعر قد بدأ يضعف في الجاهلية قبل الاسلام قولاً لا يقوم على شيء ويبعد عن الحقيقة كثيراً، وخير منه قول الدكتور شوقي ضيف " ان الشعر ظل مزدهراً بعد الإسلام فليس بصحيح انه قد توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين" (1).

وثمة أمر آخر نختلف فيه مع الدكتور القط وهو رأيه في حسان بن ثابت الذي حاول أن يدعم به نظريته في ضعف الشعر قبل الإسلام، فقد ذهب -كما رأينا - إلى ان حسان دون الفحول في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة، وانه لم يكن في قمة من قمم الإبداع في الجاهلية ثم هوى عنها بعد الإسلام، وهو رأي غريب في حد ذاته، وغرابته تكمن في اختلاف الحكم الذي نستخلصه من القدماء عن حسان، وما ذهب إليه الدكتور القط في هذه الأقوال، فالقدماء لم ينظروا إلى حسان شاعراً بين فحول أهل البادية كما فعل الدكتور القط، وإنما نظروا إليه شاعراً بين شعراء القرى العربية في الجاهلية والإسلام، وابن سلام حين تكلم عن شعراء هذه القرى وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحران (2)، قال : ان أشعر هذه القرى قرية المدينة وان شعراءها الفحول خمسة أشعرهم حسان بن ثابت (3)، ولا شك في أن الأصمعي حين حكم عليه بالفحولة لم يحكم عليه بالنظر إلى فحول أهل الجاهلية في البادية وإنما حكم عليه بالنظر إلى هذا الاعتبار، وربما نظر إلى هذا الاعتبار المزرد أخو الشماخ حين رد على كعب بن زهير في قوله:

(1) العصر الاسلامي 43

(2) هكذا وردت في كتاب ابن سلام والشائع الان (البحرين) بالياء.

(3) طبقات الشعراء ص 87.

فمن للقوا في شأنها من يحوكها إذا ما مضى كعب وفوز جزل

فقد رد عليه المزرد بأبيات منها:

ولست كحسان الحسان بن ثابت ولست كشماخ ولا كالمخبل⁽¹⁾

والثابت أن حسان كان فحلاً كما قال الأصمعي بل أن من الشعراء الإسلاميين من كان يراه فحلاً حتى في الإسلام، فهذا الفرزدق يفتخر بالفحول الذي أخذ عنهم الشعر في أبياته المشهورة المتداولة في كتب الأدب والتي يقول في أولها، فقد قالها مشيراً إلى حسان وشعره في الإسلام.

وهب القصائد لي النواذب إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجزل

وأبنا أبي سلمى زهير وأبنه وابن الفريعة حين جدّ المقول⁽²⁾

فحسان شاعر فعل بالحق إذا ما نظر إليه شاعراً مدنياً لا بالموازنة مع فحول الشعر من أهل البادية، وهذه المسحة المدنية التي لاحظها الدكتور القط في شعره الجاهلي إنما هي حقيقة يلمسها كل من يقرأ شعره، ولكنها لا تجعل شعره في الجاهلية شبيهاً بشعره في الإسلام كما ذهب الدكتور القط، فشعره

(1) الشعر والشعراء ج 1 ص 91، وأراد كعب بجزل الحطية، وفوز بمعنى مات وأراد المزرد بالشماخ أخاه وهو معقل بن ضرار من أنمار بن بغيض وأراد بالمخبل، المخبل السعدي وهو أبو يزيد ربيعة بن مالك من بني أنف الناقة

(2) الأبيات من نقيضة الفرزدق اللامية التي يقول فيها: = إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول وهي في نقائض جرير والفرزدق ص 200 ومن ديوان الفرزدق ط القاهرة ص 720 وأراد بأبي يزيد المخبل السعدي، وبذي القروح امرأ القيس ويجزل الحطية كما مضى وأراد بابن الفريعة حسان بن ثابت.

في الإسلام لا يشبه شعره في الجاهلية إلا في القصائد التي ينحو فيها منحى جاهلياً.

ونحن نظلم حسان حين نوازنه بالفحول من شعراء البادية أصحاب الطوال أو غير أصحاب الطوال، وإنما يجب أن نضعه موضعه بين شعراء القرى، إنما نظلمه حين نقول عنه " أنه لا يكاد يلم بتلك الموضوعات المقصودة في شعر كبار الشعراء الجاهليين من وصف للرحلة ومظاهر الطبيعة والرحلة وأنواع الوحش والحيوان، وهي موضوعات كان هؤلاء الشعراء يستخدمون في تصويرها كثيراً من الغريب، ويعتمدون فيها على كثير من المعاني والصور المشتركة فيما بينهم"⁽¹⁾، ونزداد ظلماً له حين نقرر في ضوء هذا الكلام حكماً يقول: " إنَّ حساناً لا يمكن بأي حال أن يعد من هؤلاء الفحول فهو دونهم في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة"⁽²⁾.

ماذا نرجو من شاعر لم يعيش حياة البادية، ولم يلامس لغة أهلها أنه يملك الموهبة الشعرية، ولكن موهبته لم تصقل بالحياة البدوية وإنما صقلت حيث نمت وترعرت في كنف الحياة المدنية وهو يملك أيضاً القدرة اللغوية على التعبير ولكنها لغة هذبتها حياة الحضر، ورققت منها ليونة الحياة لم يعرفها أهل الوبر، إنَّ من التعسف أن نطالب شاعراً كهذا بأن يلم بموضوعات الفحول من أهل البادية، وأن يلم بلغتهم وما فيها من غريب، وأن يكون واسع التجربة صادق الملاحظة مثلهم ولو أن حساناً فعل هذا بأن تشبه بأهل البادية في لغتهم وأساليبهم وموضوعاتهم التي كانوا يعالجونها في شعرهم لكان أشبه بالكميت بن زيد الأسدي في غريبه الذي كان يأخذه من أهل البادية بالسماع ثم يتعمده في هاشمياته، وهو الرجل الذي كان يعيش في الكوفة، ولم ير البادية ولم يعيش

(1) في الشعر الإسلامي والأموي ص 24.

(2) المصدر نفسه.

حياتها فجاء شعره الذي وصف به الناقة في هذه الهاشميات وتكلف فيه كلام أهل البادية باهتاً لا روح فيه ولا حياة.

وإذا كنا نختلف مع الدكتور القط في هذه الأمور فإننا نتفق معه في أن بعض شعر حسان قد ضعف في الإسلام، شأننا في هذا الشأن جل العلماء والباحثين الذين قالوا بذلك، وليس الضعف هنا ناتجاً عن أن حساناً كان ضعيف الشعر في الجاهلية أو أن الشعر العربي قد بدأ يضعف قبل الإسلام، كما يبدو من حديث الدكتور القط وإنما ضعف حسان في بعض شعره الإسلامي يرجع إلى أسباب أهمها وأولها ما ذكره الدكتور القط نفسه، وهو أن حسان واضربه من الشعراء المخضرمين حين واجهوا عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة التي جاء بها الإسلام لم يستطيعوا أن يوجدوا لأنفسهم أسلوباً يتلاءم مع القيم والقضايا الجديدة، فقد ظلوا يتأرجحون بين ما ألفوه من أسلوب شعري في الجاهلية، وما وجدوه في القرآن الكريم من أساليب بهرتهم وهزت أعماقهم فحاولوا تقليدها ومحاكاتها في شعرهم ذي المعاني الدينية ولكنهم فشلوا في ذلك إلى درجة التقريرية الفجة التي تبعد عن الشعر وتدنو من النظم غير المستحب.

وأدل دليل على ذلك أنهم في الموضوعات البعيدة عن الإسلام كانوا يقولون الشعر ويبعدون فيه فإذا ما حاولوا الاقتراب من المعاني الدينية وتمثل مظاهر التغير في القيم والمفاهيم الاجتماعية والروحية ضعف شعرهم وبعد عن الفنية كثيراً.

ونحن لا نرجع السبب في ضعف شعر حسان في الإسلام إلى اختلاطه بشعراء الأنصار مثل كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وابنه عبد الرحمن أو لأن شعره الإسلامي قد كثر فيه الوضع كما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف⁽¹⁾، وذلك لأننا نجد هذا الضعف في القصائد التي حملت عليه فحسب بل نجده في

(1) ينظر العصر الإسلامي ص 81.

قصائده الصحيحة النسبة إليه، فالذي يقرأ همزته التي قالها بعد فتح مكة وهي من القصائد التي أجمع الباحثون على صحتها ومنهم الدكتور شوقي ضيف نفسه⁽¹⁾، نجد الضعف واضحاً في مثل قوله:

وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبداً يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء

وقال الله قد سيرت جنداً هم الأنصار عرضتها اللقاء⁽²⁾

فلا شك أنك تلاحظ هذه التقريرية التي تصوغ المعاني الدينية صياغة بعيدة عن روح الفن الشعري، وما ينبغي أن يكون فيه من أسلوب رصين يهز نفس القارئ أو السامع فيتأثر به.

وكذلك لا نرجع السبب إلى الارتجال لأن بعض الشعر الذي كان يرتجله حسان بعيداً عن المعاني الدينية قد جاء جيداً لا قدح فيه، وبخاصة في المدح أو الفخر وهما الفنان الذي أجاد فيهما حسان مع الهجاء، ومن أمثلة ذلك قصيدته التي ارتجلها حين طلبه منه النبي ﷺ أن يجيب الزبير بن بدر على شعره الذي قاله لما وفد مع قومه تميم إلى رسول الله فقد قال حسان:

إن الذوائب من فھر وأخوتهم قد بينوا سنة للناس تُتبع

يرضى بهم كل من كانت سريره تقوي الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياهم نفّعوا

(1) المصدر السابق ص 82.

(2) ينظر القصيدة في السيرة ج 4 ص 49 وديوان حسان ص 224.

سجية تلك منهم غير محدثة
 إن كان في الناس سباقون بعدهم
 إن الخلائق فاعلم شرها البدع
 فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
 لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
 عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا⁽¹⁾

فهذه الأبيات مع كونها مرتجلة فقد جاءت بالغة في أدائها أو استطاع حسان أو يوظف فيها المعاني التي يجيدها في موضوع المديح توظيفاً جيداً، وأن يخلق من هذه المقابلات التي ساقها في مديحه عملاً فنياً رائعاً نقرأه فتعجب به ويحقق أثره في نفوسنا دون مبالغة أو تزويد.

وإذا كنا قد ذهبنا مع الدكتور القط إلى أن هؤلاء الشعراء المخضرمين قد عجزوا عن إيجاد أسلوب جديد يتلاءم مع القيم والقضايا الجديدة التي جاء بها الإسلام فليس معنى ذلك أنهم لم يتأثروا بالقرآن الكريم في لغته وأساليبه، ولكن تأثرهم به أو بالرسول في روائع كلمة جاء نتيجة انبهار بالإعجاز والفصاحة وقوة الأداء، فلم يتمثلوا هذه الأساليب تمثيلاً تاماً ولم تنصهر في نفوسهم انصهاراً يتولد منه أسلوب جديد في الشعر بل وقفوا عند القرآن الكريم وأساليبه والرسول وأحاديثه وكلمه موقف الناقل للألفاظ المردد للمعاني في تقريرية باعدت بهم عن الإبداع الشعري، والقارئ لشعرهم ذي المعاني الدينية يستطيع أن يلمس هذا الأداء التقريري دون عناء. انظر مثلاً قوله سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن نبيه الكريم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾⁽²⁾، ثم انظر إلى قول حسان في رثائه للنبي ﷺ: حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا مع الهدى

(1) السيرة ج 4 ص 155 وديوان حسان ج 1 ص 102 والذوائب الاعالي في الشرف وفهر هو جد قريش أراد المهاجرين وقوله أوهت في البيت الأخير يريد حطت واضعفت.

(2) سورة التوبة الآية 128.

لتدرك إلى أي مدى وقف حسان عند نقل الألفاظ وتقرير المعنى، الذي جاء في الآية الكريمة، في صورة تشبه النظم لا الفن الشعري ونحن هنا لا نوازن بين أسلوب حسان وأسلوب القرآن الكريم لأن حساناً مهما أوتي من البلاغة يعجز عن ان يجاري القرآن وأسلوبه ولكن غايته من ذلك أن نبين ان حساناً واضرابه من الشعراء المخضرمين، في تأثرهم بالقرآن الكريم قد كانوا نظامين لمعانيه أكثر منهم شعراء استوعبوا أساليبه وتفاعلوا معها ليخلقوا لنا أسلوباً جديداً في الشعر.

ويمكن أن نلاحظ بجانب ما ذكرناه من تعليل لضعف الشعر ذي المعاني الدينية في هذا الطور سبباً آخر أشار إليه الدكتور عمر رضا كحالة - وقد تقدم حديثه- حين تحدث عن الشعراء المغمورين في صدر الإسلام، فقد رأينا في الفصل السابع كيف ان أحداثاً عديدة توالى على العرب بعد الإسلام، وكيف أن هذه الأحداث قد أثرت في الشعر تأثيراً ملموساً، كما ان الشعر ذاته قد اثر فيها، فغزوات النبي وسراياه وما اتصل بهما من أحداث، وما جدّ بعد وفاة النبي ﷺ من قيام الخلافة، وردة في العرب، وفتوحات إسلامية، وفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان ؓ كل هذه الأمور ذات الأحداث المتلاحقة جعلت الشعر يجري على ألسنة الكثيرين من العرب الذين لم يعرف لهم من الشعر سوى ما قالوه في هذه الأحداث، وجلهم ليست لهم قصائد معلومة، ولا ذكر في الكتب التي عنيت بالشعراء وأخبارهم وإنما جاء شعرهم من خلال كتب السير والتاريخ التي رصدت هذه الأحداث وسجلتها، ولم تكن هذه القطع الشعرية التي قالها هؤلاء الشعراء المغمورون من الشعر الجيد فقد جاء الكثير منها في أسلوب تقريرى أشبه بتقريرية الشعراء المخضرمين في نظم المعاني الدينية التي حاولوا فيها محاكاة الأسلوب القرآني.

ويجدر بنا - وقد انتهينا من عرض آراء القائلين بضعف الشعر في صدر الإسلام ومناقشتهم فيما ساقوه من تعليقات لهذا الضعف وتوضيح ما ارتضيناه منها- أن نشير إلى ان بعض الباحثين يرفض القول بضعف الشعر في صدر الإسلام

ويرى (ان نهضة الشعر قد استمرت بعد الإسلام ان لم تكن قد تقدمت خطوات بما هيأ لها الإسلام من أسباب التقدم والنهوض)⁽¹⁾.

ومع ما في هذه العبارة من تعميم فإن صاحبها قد حاول أن يقيم لها الحجج والبراهين، وكان من أهم ما اعتمد عليه نص أورده من مقدمة ابن خلدون ولكنه لم يورده كاملاً، وإنما حذف منه أجزاء حتى يوجه النص الوجهة التي يريدها، ومن ثم رأينا أن نوقف قارئ هذا الكتاب على ما أورده الباحث من نص ابن خلدون ثم نورد له النص كاملاً كما جاء في المقدمة حتى يتسنى له الوقوف على نموذج من نماذج التدليس التي يلجأ إليها بعض الباحثين في عصرنا هذا. قال الباحث في بحثه: ذكر ابن خلدون: " أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منشورهم ومنظومهم، فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية"⁽²⁾.

هذا ما أورده الباحث من نص ابن خلدون أما ابن خلدون فقد عقد فصلاً في مقدمته، وهو الفصل السابع والخمسون يتحدث فيه عن حصول ملكة صناعة النظم والنثر فأشار إلى أن هذه الملكة لا تتم إلا بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ، ثم نبه إلى أن مخالطة هذا المحفوظ بالمحفوظ من العلم ومساائله المتعددة يضرب قريحة الأديب، ويخدش وجه ملكته ثم قال: " ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى

(1) الإسلام والشعر د. سامي مكّي العاني ط عالم الكتب الكويت ص 20.

(2) ينظر النص كما نقله الباحث في المصدر السابق ص 20 وما يليها.

طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منشورهم ومنظومهم، فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة، والخطباء وجريير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة، والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدروا الإسلام وسمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فتصفت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها⁽¹⁾.

ولعلك حين تقرأ ما أورده هذا الباحث من نص ابن خلدون ثم تقرأ هذا النص الكامل في المقدمة تدرك كيف أن الباحث قد وجه النص بما بتره منه توجيهاً لم يردده ابن خلدون ولا رمى إليه، ذلك لأن ابن خلدون في هذا النص عالم يضع نظرية عامة في الأدب وهي نظرية تقوم وفق معطيات المجتمعات من الثقافة وتطورها عبر العصور فالأدباء أياً كانوا شعراء أو خطباء لابد لهم من ثقافة تصقل ملكاتهم وتقوي بيانهم في التعبير، وقد كان شعراء الجاهلية وخطباؤها يستقون ثقافتهم من الموروث الأدبي الذي قاله من سبقهم من الأجيال الغابرة، ومن ملاحظاتهم وتجاربهم في البيئة التي نشأوا فيها والحياة التي عاشوها فلما جاء الإسلام كان لابد أن تتسع ثقافة شعرائه وخطبائه أكثر ممن سبقهم في الجاهلية إذ وجدوا من القرآن والحديث ثقافة جديدة وطبقة عالية من الكلام يستلهمون منها معانيهم وصورهم بجانب ما ورثوه من شعر الجاهليين وخطبهم

(1) ينظر تاريخ ابن خلدون ط مكتبة المدرسة ودار الكتاب العربي، بيروت المجلد الأول ص 1115 وما يليها.

ولكن هذا - وعلى حد تعبير ابن خلدون - تم للذين ولجت هذه الطبقة العالية في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، أي تم ذلك للشعراء الذين تمثلوا أساليب القرآن ومعانيه تمثلاً تاماً، ولم يحدث هذا إلا عند شعراء العصر الأموي وما تلاه. أما الشعراء المخضرمين فإن تمثلهم لأساليب القرآن ومعانيه كان محدوداً ومن ثم وجد الضعف في شعرهم ذي الصبغة الإسلامية أما شعرهم المستوحى من ثقافتهم الجاهلية والسائر على نهج الجاهليين فلا ضعف فيه ولا لين.

وبناء على نظرية ابن خلدون هذه يمكن القول بأن شعراء العصر الأموي أكثر ثقافة في الشعر والبلاغة من شعراء الطور الأول من الإسلام لأن اتساع الفتوحات في عصرهم أتاح لهم فرصة الاختلاط بأجناس أخرى اكتسبوا منها معارف جديدة وثقافات عديدة وأنماطاً في الحياة والسلوك بالإضافة إلى تمثلهم التام لأساليب القرآن الكريم والحديث الشريف وما ورثوهم، تراث ونثري سابق ومن ثم أصبحوا أوسع معاني في الشعر وأبلغ في القول، وينطبق هذا على شعراء عصر بني العباس، فكلما تطورت حياة المجتمعات وارتقت ثقافتها نمت درجة البلاغة في شعر شعرائها وارتقت معانيهم.

هذا ما نفهمه من كلام ابن خلدون أو ما ينبغي أن يفهم من نصه، فأبو تمام- عند ابن خلدون- أبلغ في شعره جرير، وجرير أبلغ من الحطيئة، والحطيئة أبلغ من عنتره وهكذا.

وابن خلدون في نظريته هذه ينظر إلى الأدب نظرة كلية نظرة جزئية، بمعنى أنه لا يخص بحديثه فترة زمنية معينة وإنما ينظر إلى الأدب قبل الإسلام وبعده دون أن يحدد الأطوار التي مر بها الأدب قبل الإسلام والأطوار التي مر بها بعده، ولذا نراه يجمع بين شعراء أولهم مخضرم وآخرهم عباسي أي يجمع بين حسان وبشار، وهو وإن لم يوفق في وضع حسان بين هؤلاء الشعراء الذين ذكرهم، فإنه على أية حال برهن على أنه لا يعني مرحلة بعينها، وقضية الضعف التي يناقشها الباحث إنما تخص مرحلة معينة هي مرحلة الطور الأول من الإسلام-

عصر الرسول والخلفاء الراشدين- وهي لا تمس شعر هذا الطور كله وإنما الشعر المتصل بالمعاني الدينية فقط.

وابن خلدون عندما تكلم عن حصول ملكة صناعة النظم والنثر بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ وقال ما قال لم يكن في باله قط قضية ضعف الشعر في هذا الطور من الإسلام وإنما كان همه درجات البلاغة بين الشعراء وفق معطيات عصورهم من الثقافة ولأن حال الشعر في هذا الطور من الإسلام قد وضع رأيه فيها في موضع آخر من مقدمته، وقد تفاضل الباحث عن هذا الرأي أو لم يقف عليه، وهو الرأي الذي عرضناه في أول حديثنا عن هذه القضية، فابن خلدون- كما رأينا- لا يقول بضعف الشعر في هذا الطور بل يقول بتوقفه وانصراف العرب عنه وهو أمر بالنسبة لهذا الباحث وما ذهب إليه من رأي.

وليت الباحث وقف عند بتر أجزاء من نص ابن خلدون ليوجهه حسب هواه، وإنما زاد على ذلك أن أسند إلى باحثين معاصرين آراء لم يقولوا بها أو لا تفهم مما قالوه، فقد ذكر الباحث أن كلاً من عمر فروخ والمستشرق الايطالي نالينو يرفض القول بضعف الشعر في صدر الإسلام، وأن الدكتور يوسف خليف يقف موقفاً وسطاً من هذه القضية⁽¹⁾.

فأما الدكتور عمر فروخ فقد نقلت في هذه القضية في موضع سابق، ولقد رجعت إلى الصفحة التي أحال إليها الباحث من كتاب (تاريخ الأدب العربي) فإذا بي أجد ما نصه (غير أن انعام النظر في أسلوب شعر المخضرمين يدلنا على أن الجانب الأقل منه كان قد بقي على نسجه المتين الجاهلي كشعر الحطياة وبعض شعر حسان أما الجانب الأكبر منه فقد أصبح أضعف نسجاً وأقل براعة وأكثر تخلخلاً لضيق المجال الوجداني الذي كان للجاهليين من قبل)⁽²⁾، فهل

(1) ينظر الإسلام والشعر ص21.

(2) ينظر تاريخ الادب العربي عمر فروخ ط دار العلم للملايين ج1 ص 257.

هذا الكلام يدل على أن صاحبه من المعارضين لضعف الشعر في صدر الإسلام أو يؤكد في وضوح هذا الضعف ويضع له ما يراه من سبب^{١١٩}

أما كارلو نالينو فالذي يرجع إلى كتابه يجد أنه لا يتكلم عن ضعف الشعر في صدر الإسلام - وإنما ينفي قولاً سبق أن نفيناه وهو القول القائل بتوقف الشعر في صدر الإسلام وانصراف العرب عنه، فقد أورد نالينو نص ابن خلدون الذي سبق أن أوردته، والذي يقول بانصراف العرب عن الشعر، كما أورد نصاً لابن سلام رواه عن عمر رضي الله عنه يشير فيه إلى أن العرب تشاغلت عن الشعر بالإسلام والجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايتها، ثم أشار إلى الكتب الحديثة التي قالت بهذا الرأي وانتهى إلى نفي أن الشعراء انصرفوا عن قريضهم أو أن الخطباء انصرفوا عن نسج نثرهم^(١)، فهو إذن لا يناقش قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام، ولم يصرف همه إليها وإنما ركز كل حديثه على أقوال القدماء القائلين بتوقف الشعر في صدر الإسلام وانصراف العرب عنه، وحتى هذه الأقوال التي تقول بالتوقف قال: "أنه ما كان ليناقضها لولا أن رأي بعض الباحثين المعاصرين قد قال بها"^(٢). هذا ما جاء عن نالينو فمن أين للباحث القول بأنه يقف ضد القول بضعف الشعر في فترة صدر الإسلام^{١١٩}

وأما الدكتور خليف فقد أورد له الباحث نصاً من كتابه (حياة الشعر في الكوفة) وكل ما نخرج به من هذا النص أن صاحبه يرى (أن القرآن لم يصرف العرب جميعاً عن قول الشعر ولكنه أضعف من سيطرته على المجتمع الأدبي الإسلامي بعد أن كان هو اللون الأساسي في الحياة الأدبية الجاهلية، وإذا كان ليبدد قد فكر في أن يحطم قنارته فقد كان هناك غيره احتفظوا بقيثاراتهم دون أن يحطموها، وأن الرجة الدينية والأدبية التي أثارها القرآن في نفوس الشعراء وفي

(١) يراجع تاريخ الاداب العربية ط دار المعارف مصر ص ١٠٣ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه.

المجتمع الإسلامي كادت تزلزل الأوتار في أيديهم، وتجعل الناس لا يجدون في شعرهم تلك المتعة الأسرة التي كان القدماء يجدونها في الشعر القديم أو على أقل تقدير لا يجدون في وقتهم ما يجعلهم يلتفون حولهم ليستمعوا لهم كما كان أسلافهم⁽¹⁾.

وهذا الكلام لو جردناه من هذه الزوائد الإنشائية المتصلة بالقيثارات والأوتار والمتع الأسرة لوجدنا أن صاحبه يريد أن يقول أن الشعر لم يتوقف بعد الإسلام ولكنه لم يعد كما كان في الجاهلية إذ فقد السيطرة الأدبية التي كان يتمتع بها قبل الإسلام، وأن الشعراء - وقد شغلهم القرآن بما أحدثه في نفوسهم من هزة دينية وأدبية- فقد كادوا يكفون عن قول الشعر، وأن الناس- وقد شغلوا بالقرآن أيضاً- لم تعد لديهم متعة في الاستماع إلى الشعراء أو أن وقتهم لم يعد يسمح لهم بهذا الاستماع، وهو كما ترى لا يدل على موقف الوسط في قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام بل يحاور بالأسلوب في تعمية والتواء للوقوف مع ابن خلدون وغيره من القائلين بتوقف الشعر وانصراف العرب عنه.

وهذا الموقف الملتوي من الدكتور خليف الذي لا يخفى على الدارس المتأنى شبيه بموقف الدكتور محمد نجيب البهيتي من هذه القضية فقد قال الدكتور البهيتي ما نصه: "ضعف الشعر في صدر الإسلام نظرية صحيحة، والعرب قوم ذوو لسن وذوق قولي ممتاز فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله كما أخذتهم بالدهشة تلك الشريعة الكاملة المبرأة من النقائص الني كانت تصيب الشرائع الأخرى فشغلوا بالقرآن وسكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله"⁽²⁾.

(1) ينظر حياة الشعر في الكوفة ط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ص 156 وينظر النص في كتاب الاسلام والشعر ص 21 وما يليها.

(2) تاريخ الشعر العربي الى نهاية القرن الثالث الهجري ط دار الكتاب العربي بيروت ص 113.

فانظر إلى هذا القول كيف بدأ وكيف انتهى، لقد بدأ بان الشعر قد ضعف في صدر الإسلام، وانتهى بان العرب قد شغلوا عن الشعر وسكت الشعراء ليستمعوا إلى قول الله، وحشا ما بين البداية والنهاية بكلام لم يصل إلى مدارك العرب في ذلك الحين لأنه كلام لا يدرك إلا بالدراسة المتأنية في الإسلام، ومقارنته بالديانات الأخرى كما هو واضح في قوله: "الشريعة الكاملة المبرأة من النقائص التي كانت تصيب الشرائع".

ومعلوم ان الأول الذي جاء في أول الكلام لا يعني القول بالتوقف الذي جاء في آخره، القول بالضعف يعني ان الشعر كان موجوداً ولكنه لسبب ما أصبح ضعيفاً، والتوقف يعني ان الشعراء قد شغلوا بشيء ما عن الشعر فسكتوا عنه، فلو ان باحثاً اخذ صدر النص ودعم به رأيه في القول بضعف شعر حسان أو غيره في الإسلام، لما قال له أحد شيئاً، ولو ان باحثاً آخر اخذ خاتمة هذا النص- كما فعل الدكتور سامي العاني- وجعله دليلاً على ان البهيتي يقف مع ابن خلدون في رأيه بتوقف الشعر في صدر الإسلام لما قال له أحد شيئاً، أرايت كيف يكون الالتواء في كلام بعض الباحثين وهو أمر كان ينبغي ان يحتاط منه هذا الباحث القائل بنهضة الشعر في صدر الإسلام حتى يجنب نفسه هذه المزالق.

إننا نرفض القول بتوقف الشعر الذي قال به ابن خلدون ودار حوله في غير وضوح الدكتور خليف وأطلّ من حديث الدكتور البهيتي، وذلك لأننا قد أثبتنا من خلال الفصل السابق ان الشعر كان موجوداً في كل حدث من أحداث الإسلام، وان الشعراء لم يتوقفوا بل عبروا متأثرين ومؤثرين في سائر الأحداث التي طرأت على حياة العرب بعد الإسلام، ولكن شعرهم في هذه المرحلة قد أصيب بالضعف والتقريرية ليس كل الشعر وإنما الشعر الذي جاء معبراً عن بعض المعاني الدينية والقيم الروحية التي جاء بها القرآن الكريم والحديث الشريف.

وهذا الرأي الذي ارتضيناه قال به جماعة من العلماء نعتز بهم وبآرائهم ونحمد لهم - برغم الاختلاف أحياناً - أعمالهم وبحوثهم التي قاموا بها في هذا المجال، كما نحمد لغير القائلين بهذا الرأي أعمالهم وجهودهم في هذا السبيل، ولا نجرؤ أن نصفهم بأنهم (قليلو الاطلاع على النصوص الشعرية)، كما فعل صاحب (الإسلام والشعر)⁽¹⁾، الذي لم نقصده لذاته وإنما قصدنا من توضيح مزالقه .

وان كان ثمة شيء يذكر فهو مجمل ما انتهينا إليه في هذه القضية وهو ان الشعر في هذا الطور من الإسلام لم يتوقف، وان الشعراء لم يسكنوا عنهن ولكن بعض شعرهم قد جاء ضعيفاً وبخاصة عند الشعراء الذين واكبوا الإسلام في أحداثه الأولى، وهذا الضعف لا يشمل كل شعرهم وإنما يظهر للقارئ في شعرهم الذي يصطبغ بصبغة دينية مستوحاة من القرآن، وهو ضعف يرجع إلى أنهم عاشوا مرحلة دقيقة في تاريخ الشعر العربي فقد مثلوا الجسر الذي يربط بين مجتمعين لكل منهما قيمه وقضاياه، الأمر الذي جعلهم يتأرجحون في فئهم بين ما ألفوه في حياتهم الأدبية قبل الإسلام وما جدّ عليهم في الإسلام، وقد حرصهم هذا التأرجح من ان يستوعبوا القيم والقضايا التي جاء بها الإسلام، كما حرصهم من ان يتمكن القرآن بأساليبه ومعانيه من نفوسهم فينصهر فيها ويخرج لنا أسلوباً شعرياً جديداً يتلاءم مع ما جاء به الإسلام من قيم روحية واجتماعية، أضاف إلى هذا ان جل الذين نطقوا بالشعر في هذه الفترة من الإسلام كانوا من المغفوريين ممن لم يعرفوا بالأصالة والجودة، كما ينبغي ان ندرك ان هناك شعراً موضوعاً قد حمل على شعراء تلك الفترة، ولكنه لا يصلح دليلاً على نفي ضعف الشعر عند هؤلاء الشعراء لأن هذا الضعف يوجد في أشعارهم التي لا يختلف الباحثون في صحة نسبتها إليهم، كما ان الارتجال وكثرة الشعر لا يقومان -

وحدهما - دليلاً على هذا الضعف، ولا يكونان السبب المباشر فيه، إذ أنهما أمران يتصلان بالشاعر نفسه ومدى قدرته على التعبير في المواقف التي تستدعي الارتجال والكثرة وقد كان الشعراء في هذا متفاوتين⁽¹⁾.

(1) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، ص 95.

ضياع الشعر الإسلامي

وكان للأحداث الكبرى التي شهدتها العصر، أثر فيما آل إليه الشعر من الطمس والضياع، والنحل والتزيد، فالفترة مليئة بالأحداث الهامة الكبرى، وفي غمرة الأحداث هذه، يتعرض الشعر وكل الظواهر الأدبية، إلى الطمس والضياع، وإذا استعرضنا الأحداث التي تتابعت سريعا، نجد ان الإسلام قد لقي عداء شديداً ونضالاً عنيفاً من مشركي قريش، ومن والى قريشا من التقفيين والاعراب واليهود، ولم يكن العداء هينا يسيراً، فقد قدم الفريقان لأجله من الضحايا العدد الكبير، وخلف الضغائن والأحقاد، واستمر النزاع طويلاً نيف على العشر سنين، وقد كاد الخطر يحدق بالإسلام والمسلمين، حتى قيض الله لدينه ان ينتصر على معقل الشرك وأهله في الفتح، ثم في حنين والطائف، ولم يكاد يطمئن المسلمون إلى درء الخطر والقضاء عليه، حتى أصيبوا بوفاة رسول الله ﷺ، وجوبهوا بتحد جديد وخطر رهيب من قبل القبائل التي أعلنت ردتها وتمرها على سلطان المسلمين، المتمثل في خلافة أبي بكر، وكان ان أعلن أبو بكر الحرب، وجابه المرتدين بحزم وشدة، وكادت معركة اليمامة ان تهدد المسلمين بفناء أكثر الحفاظ، وما ان قمعت حركة الردة، حتى توجه المسلمون نحو الفتوح، وقبل ان يكتب لهم الطمأنينة على أمر دينهم، والاستقرار في دور الهجرة، حتى أشرب أعناق الفتنة وتطاول شرها واستفحل، فتخطفت ثلاثة من أمراء المسلمين، وهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب (رضوان الله عليهم جميعاً).

ومن الطبيعي ان يتأثر الشعر بهذه الأحداث الجسام، فيضيع منه الكثير، ولعل ابن سلام كان ينظر إلى هذه الأحداث، عندما قال معقبا على قول لعمر بن الخطاب: "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه أي شعرا العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولثت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا

كتاب مكتوب، وألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك، بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير⁽¹⁾، نعم (فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير)، وضياع الشعر عامة - الجاهلي منه والإسلامي - أمر يؤكده النقد القدامى، فابن سلام يذكر في موطن آخر من كتابه⁽²⁾، قلة ما بقي لطرفة وعبيد بأيدي الرواة والمصححين، ويقول أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"⁽³⁾.

وإذا عرفنا أن الشعر الذي قاله شعراء مكة، وغير شعراء مكة من خصوم الإسلام، كان يهاجم الرسول وأصحابه، والدين الإسلامي، ثم يشاء الله أن يكون النصر لدينه ورسوله، ويدخل الخصوم طوعاً أو كرهاً في رحاب الإسلام، إذا عرفنا ذلك، أدركنا أن لابد أن يعمل الناس على تجنب ما قيل من الشعر الذي يمثل عهد الحرب والدماء والصراع بين الكفر والإيمان. ثم إن ولاة المسلمين قد نهوا عن رواية الشعر الذي تراد به أهل مكة والمدينة، فعمر بن الخطاب كان حازماً في منع ما قيل، دفعاً للتضاغن والأحقاد، وبث القبيح، وإذا تيسر للأنصار فدونه وجدوده حمية وعصبية⁽⁴⁾، فما كان لقريش أن تفعل ذلك وقد تغير بها الزمان وتبدل وجه الدنيا، فشعرها كان يحارب الله ورسوله، ثم قد ثابتت فآمنت بالله ورسوله، فالشعر الذي كان مفخرة عصبيتها بالأمس، أصبح اليوم سبة وعارا تتوارى منه، وتعمل على دفعه والتخلص منه، ثم إن المسلمين لا

(1) طبقات الشعراء ص 22.

(2) المصدر نفسه، ص 23.

(3) الخصائص: ابن جني ج 1 ص 386، ط الدار، طبقات الشعراء ص 23.

(4) جاء في الأغاني: أن عمر بن الخطاب قال بعد أن حدث ما حدث بين حسان بن ثابت وبين غريمه عبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب إني كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان من بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذا أبوا فاكثبوا واحتفظوا به"، قال الراوي "فأدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه" الأغاني ج 4 ص 141 ط الدار.

يرضيهم حفظ شعر فيه تعريض برسول الله وأصحابه، فكان طبيعياً أن يعملوا على طمسه وأبادته، أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ، كان قد نهى عن روايته اشعار بعينها⁽¹⁾.

وحتى الشعر الذي وصل إلى الرواة في العصور الأولى، وفيه تعريض برسول الله ﷺ وأصحابه، قد تخرجوا من روايته وأسقطوه من مدوناتهم، وكثيراً ما نجد في السيرة تعقيبات لابن هشام، يذكر فيها أنه اسقط أبياتاً من القصائد والمقطعات، نال الشعراء فيها من رسول الله وأصحابه، أو أن الشاعر قد أقذع فيها، ولذلك فليس من الغريب أن نجد شعر قريش أو شعر مكة، خلوا من ذكر الدين الإسلامي، ومن ذكر رسول الله ﷺ - إلا في القليل النادر - وقد يلتبس لأجل ذلك هذا الشعر بشعر الأيام- أيام العرب في جاهليتها واسلامها - لولا ما في شعر الفترة من ذكر للمواقع والرجال.

وإذا كان كثير من الشعر المتعلق بأحداث هذه الفترة قد ضاع، نتيجة الصراع بين مكة والمدينة، ولحركة الفتوح والتوسع فلأسباب نفسها، مضافاً إليها العصبية - التي بقيت قوية مستمرة في حياة المسلمين - كان احتمال الشك والتزوير في شعر الفترة، فإن ما بقي من هذا الشعر لا يصح أن يؤخذ على أنه صحيح لا ريب فيه، كما أنه لا يصح أن يرفض على أنه باطل لا نفع به، ولا خير فيه، وإنما يؤخذ هذا الشعر بالتقوية والتنقيح والتمحيص، فمنه الصحيح الذي لا غبار عليه، وقد وثقته الرواة وصححه الناقلون، ومنه الفاسد المصنوع ويتضح زيفه بالفحص والتمحيص، وإن استجلاء الشعر الصحيح من الشعر الفاسد، مهمة غير يسيرة، وذلك أن كتب السيرة على العموم، أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ، وطبيعة القصص، تحتل التزويد، بل يجملها المثل المصنوع والشاهد

(1) مثل شعر أمية ابن ابن الصلت في هجاء المسلمين وبكاء قتلى بدر من المشركين وعلينا أن نحذر هنا من الغلو في تقدير ما منع الرسول، فقضية أمية هذه مدونة في السيرة ويبدو أن الرواة دونوها فيما بعد حيث زالت ظروف منعها ينظر في السيرة ق2 ص30-32.

الملفق، وقد فطن لذلك الرواة العلماء، فنبهوا إلى ما فيها من شعر مصنوع منحول، وفي كتاب السيرة لابن اسحق - وهو من أهم وأقدم الكتب التي اعتنت بأحداث هذه الفترة - كثير من مثل هذا الشعر، فعمل ابن هشام على استدراكه على ابن اسحق - وأسقط كثيراً منه، وبين زائفه، وذكر نقد العلماء له، وابن اسحق نفسه كان قد نبه إلى ما في كتابه من منحول الشعر، فاعتذر بأنه لا علم له بالشعر، يحمل منه الجيد والرديء، قال: لا علم لي بالشعر أوتي به فأحمله⁽¹⁾، ولم يرض ابن سلام بذلك عذرا، فقال: "ولم يكن له ذلك عذرا، فكتب في السيرة اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين؟ والله تبارك وتعالى يقول: تُقَطَّع دابر القوم الذين ظلموا أي لا بقية لهم⁽²⁾."

ونقد ابن النديم ابن اسحق أيضاً فقال "ويقال: كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر"⁽³⁾، وقد عمل ابن هشام على تعقب ابن اسحق، فاختصر بعض ما أورده ابن اسحق، ونقد بعضه الآخر، ونبه عليه وذكر روايات أخرى، فأت ابن اسحق ذكرها، ومع ان ابن هشام كان يسقط ما لا يصح عنده من الشعر، فقد كان يثبت أشعارا منحولة مما أثبت ابن اسحق دون أن يخرم منها شيئا، ثم ينبه عليها بأن يقول: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لقلان أو أنها لم تصح... وهكذا.

(1) طبقات الشعراء ص 9.

(2) طبقات الشعراء ص 9.

(3) الفهرست - ابن النديم ص 136 ط المكتبة التجارية بمصر.

وإذا كان ابن سلام قد فتح للنقاد طريقاً يؤدي - إذ أحسن الفهم والقصد - إلى تصحيح الخطأ، ورد المنحول، فانه كذلك يذكر أن: "ما اتفقوا [أي العلماء] عليه [أي الشعر] فليس لأحد أن يخرج منه" ⁽¹⁾.

ثم ان من الشعر ما تُرجح صحته الأسانيد وأكثر الشعراء المخضرمين حظاً من هذا الضرب في الروايات المسندة، هو حسان بن ثابت، ومرد ذلك إلى صلة حسان برسول الله ﷺ وشعره في الأحداث الإسلامية.

من هذا يتضح ان شعر الفترة، قد تعرض للضياع والشك، وذلك من طبيعة الفترة والأحداث التي شهدتها، والمنهج الصالح القويم، يقوم على اخذ ملاحظات النقد القدامى باهتمام بالغ، إذ لا يمكن أن يركن إلى شعر نبه على بطلانه الثقافات من الأقدمين، وعلى الباحث - إذا توخى الدقة والاطمئنان - ان يعرض الشعر على الحدث التاريخي، فإذا استجاب له قبله وإلا رفضه، وان يقارن شعر الشاعر بما ثبت وصح من شعره، فإذا وافقه كان منه وإلا صد عنه.

ولا بد من الحذر، فكما يطلب الحذر من الفاسد المصنوع، عليه ان يحذر من الغلو والإسراف في تقدير المنحول المصنوع، ومن إتباع الهوى الذي تحببه لذة التشكيك ⁽²⁾.

(1) طبقات الشعراء ص 6.

(2) يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص 48.

الشعراء المخضرمون

الشاعر المخضرم هو الشاعر الذي عاش في عصر ما قبل الإسلام واستمر بالحياة في عصر صدر الإسلام، منهم من دخل الإسلام ومنهم من بقى على دينه. لقد أثر الإسلام في الشعراء المخضرمين لاسيما شعراء مكة والمدينة وأهل البادية أيضاً وهو تأثير متفاوت حيث كان عميقاً لدى البعض منهم وضئيلاً في البعض الآخر ومنتقياً في البعض الثالث وسبب ذلك يعود إلى علاقة هؤلاء بالإسلام ومدى ارتباطهم به زمنياً ومكانياً فقد دخل جماعة منهم في الإسلام بعد الفتح في السنة التاسعة من الهجرة ثم شغلوا بالردة التي بدأت بواكيرها في الأيام الأخيرة من حياة النبي محمد ﷺ وتفاقم أمرها بعد وفاته، وقد رأينا بعضاً من هؤلاء الشعراء قد ثبت على دينه وأخذ يناضل الردة بشدة، أما بعضهم الآخر فقد ظل مع الردة يقول الشعر مدافعاً عن الذين آثاروها معضداً ومؤيداً لهم، لذلك ظهر اتجاهان للشعر عند المخضرمين:

الاتجاه الأول:

إننا نلاحظ على شعراء هذا الاتجاه تحولاً في الموضوعات والمعاني عن المسار الذي كان عليه الشعر في عصر ما قبل الإسلام إذ تطبع شعراؤه بما خطه الإسلام من خلق ديني وقيم جديدة فتأثر شعرهم تبعاً لذلك فعف لسانهم عن الكثير من أغراض الجاهليين ومعانيهم التي تسلك سبيل الغواية وتثأى عن الهدى والرشاد فتخلوا من الفخر القائم على العصبية القبلية الداعي إليها، والغزل المفحش الصريح، والهجاء الذي ينال الأعراض ويهتك الحرمات فلم يجر لسانهم به إلا في هجاء المشركين من قريش وغيرهم قبل الفتح حيث كان دافعه حماية الدين والذود عن الرسول ﷺ، كما ترفعوا عن وصف الخمرة وما يتصل بمجالسها من قيان وندمان إلا ما جاء عن موروث في البناء الشعري للقصيدة، وتجنبوا المديح الذي ينشأ لغرض العطاء أو العصبية القبلية واتجهوا إلى مدح

الرسول محمد ﷺ وصحابته وأنصاره ونهضت على أشعارهم معان جديدة مثل تأييد دعوة الإسلام والحض على الجهاد والبحث عن صالح الأعمال والمواظب الحسنة ورتاء من استشهد من المؤمنين في غزوات النبي محمد ﷺ وسراياه ورتاء الرسول ﷺ ومن مات أو قتل من الخلفاء الراشدين . وجرى على سنتهم شعر حماسي في الغزوات والسرايا ثم في الفتوحات الإسلامية معبرين بذلك عن الفداء والتضحية في سبيل أعلاء كلمة الله كما وصفوا المعاقبل والحصون التي فتحوها والآت الحرب التي لم يروها من قبل ولم يألّفوها.

وقد كان مدحهم للرسول محمد ﷺ يدور على مجيء الهدى على يديه وأنه صادق أمين فيما وكله الله إليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، يؤكدون بشعرهم ما قرره الإسلام من وحدة الجماعة تحت كلمة الحق التي تصدر عن الرسول محمد ﷺ.

وقد سخر الهجاء لخدمة الدين، وكان الموجه له هو رسول الله ﷺ نفسه، قال: (ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله ﷺ بسلامهم أن ينصروه بالسنتهم، فلما قال حسان: أنا لها يا رسول الله، قال له أذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم أجههم وجبريل معك).

وبدا واضحاً أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك كانا يهجون قريشاً بالمثلث والايام والوقائع وكان عبد الله بن رواحة يهجوهم بالكفر والصد عن سبيل الله.

وكان رثاؤهم موقوفاً على من سبقهم إلى الشهادة في غزوات النبي ﷺ وسراياه ثم رثاء النبي ﷺ، ورثاء خلفائه من بعده، كما ظهرت الحماسة واضحة في أشعارهم فهم يرون القتل مدحاً لأنهم يحققون به الشهادة من ربهم والفوز من نبينهم الذين يذودون عنه ذماره ويدفعون عنه بالسيف واللسان ولا يرون أمامهم في القتال إلا ما وعد الله به من الجنة والاجر العظيم وبدأ هذا في شعر الفتوحات الإسلامية، والشعر الديني الذي جرى على ألسنة الشعراء والذي يدعو إلى

الإسلام متحدثاً عن عقائد الدين وما جاء به من قيم ودعوة القبائل إلى الصلح وحماية الإسلام من الخصوم والأعداء والعمل على حث الآخرين على الدخول في الإسلام.

الاتجاه الثاني:

والملاحظ أن الشعراء ساروا بالشعر على نحو ما كان عليه في الجاهلية فمضوا يقدمونه في أغراضه المعروفة ومعانيه المعهودة فمدحوا من أجمل العطاء والعصبية القبلية، وتغزل بعضهم من غير ما تحرج، ووصفوا الخمرة كما كانوا يصفونها، وظل بعضهم مستمراً بكتابة الهجاء المقذع وأن تأثر بعضهم بالإسلام لكنه تأثير غير واضح.

وخلاصة القول أن الشعر في صدر الإسلام رغم ما جد عليه من تطور أو مدام فيه من تقليد كان استجابة لظروف الشعراء المخضرمين ومواهبهم وقناعاتهم، فمنهم من لم يتصل اتصالاً مباشراً بالدعوة الإسلامية ولم يواجه ضرورة للتعبير عن تجارب جديدة لا عهد له بها فظل شعره في جملة امتداداً للشعر القديم، ومنهم من كان له دور مشهود في نصرته الدين والمشاركة في وقائع الدعوة الإسلامية وعاش في بيئة جديدة في فكرها وأخلاقها وعلاقاتها الاجتماعية.

وهكذا كان شعر هؤلاء خليطاً من القديم والجديد، ولذلك كان لابد أن يظل هناك امتداد للشعر الجاهلي في شعر العصر الإسلامي على اختلاف المظهر والدرجة إذ ليس من اليسير أن يتخلى الشاعر عن تقاليد فنية جرى عليها الشعراء قبله منذ زمن بعيد وأن يبتكر لنفسه أسلوباً جديداً كل الجودة.

استقر العرف على إطلاق وصف المخضرم على من أدرك الجاهلية والإسلام، ولكننا حين نتبع هذا الوصف نجد له دلالات أخرى، وإن كانت مرتبطة بما انتهى إليه العرف، ففي اللغة نجد استعمالات الخزيمة (بفتح الخاء)

تدور حول النقص، سواء أكان النقص مادياً أم معنوياً، فالملاحظ في كل هذه الاستعمالات أنها تشتمل على التقليل من قدر الموصوف بها، حيث لم يكن العرب في الجاهلية يستعملون وصف المخضرم عادة إلا لمن كان فيه عيب أو نقص نسبي شذ به عن غيره.

فمن استعمالات المخضرم⁽¹⁾ عند العرب، الدعى، وهو المنتسب إلى قوم ادعاء، ومنها الناقص الحسب، ومن لا يعرف أبوه، وكل ذلك فيه نقص واضح، ومن استعمالاته الأسود الذي أبوه أبيض، حيث كان ينبغي في عرف الناس أن يولد أبيض كأبيه، فكان سواده نقصاً لذات السواد، ونقصاً لتخلف الولد عن أبيه في اللون، والمعنى الأخير هو المناسب لاستعمالات المخضرم، فإن هذه الاستعمالات لا تلتزم النقص لذاته، وإنما تلتزم النقص - النسبي، بمعنى أننا قد نجد في بعضها دلالة على وصف لا يعد في ذاته نقصاً، وإنما يعد نقصاً إذا قيس بغيره.

فمن استخدام اللغة لهذه الكلمة قولهم طعام مخضرم إذا كان حقيراً تافهاً، ولحم مخضرم إذا لم يكن يعرف أهو لحم حيوان ذكر أم أنثى، فاللحم حينئذ لا عيب فيه لذاته، ولكن الشك في مصدره يجعله أقل درجة من اللحم المعروف الأصل، وكذلك يقال ماء مخضرم إذا نزلت درجته عن الماء الجيد النقي، ويقال ناقة مخضرمة إذا قطع شيء من أذننها.

ومن هذا نتبين أن النقص بصفة عامة هدف واضح لاستعمالات المخضرم، وقد بلغت دقة مراعاة هذا المعنى في الاستخدام، أننا نجدهم يصفون من لم يختن من الرجال بأنه مخضرم، بينما يصفون المرأة المختتة بأنها مخضرمة، وكأنهم يراعون أن عدم الختان في الرجل نقص، والختان كمال في رجولته، بينما الختان نقص في أنوثة المرأة، وعدمه كمال فيها، فدار وصف المخضرمة حول النقص.

(1) المخضرم بفتح الراء وقد تكسر: انظر خزانة البغدادى 1- 268.

ومن هنا جاء وصف المخضرم لمن أدرك الجاهلية والإسلام، فكأنهم راعوا أن الحياة في الجاهلية نقص في صاحبها، هذا المعنى يصرح به صاحب أساس البلاغة حيث يقول (ناقة مخضرمه جدع نصف أذنهما، ومنه المخضرم الذي أدرك الجاهلية، والإسلام، كأنما قطع نصفه حيث كان في الجاهلية)⁽¹⁾.

وهذا يدعونا إلى التساؤل: كيف يتفق جلال الجيل المعاصر للنبي ﷺ مع وصفه بالنقص الذي يوحيه لفظ المخضرم؟

ويمكن الرد على هذا التساؤل بأن نظرة الإجلال التي ينظر بها إلى هذا الجيل، إنما تحددت بصورتها الكاملة بعد انقضاء الجيل نفسه، بل بالتدرج بعد انقضائه بمعنى أنه كلما بعد العهد بهذا الجيل زاد جلاله في نظرة الأجيال إليه، أما الجيل نفسه على نطاقه الواسع في الجزيرة العربية، فلم يكن ينظر إلى نفسه هذه النظرة، بل كان على العكس من ذلك، أول ما يبدو في نظرتة إلى نفسه هو الألم والضيق بما أسلفه من حياته في الجاهلية، وكان عمق إحساسه بالدين وسيطرة التشبث بالإيمان تزيد من إحساسه بالسخط، على ما أسلف في الجاهلية مما يخالف هذا الدين المسيطر على نفسه، وكثيراً ما بدا هذا من الذين يجيئون إلى النبي ﷺ مسلمين، ولم يكن يخفف من حزن هؤلاء على ما ضيعوه في حياتهم الجاهلية، إلا مثل قول النبي لهم (الإسلام يجب ما قبله).

وهذا التعميم لا ينطبق كل الانطباق على الذين عايشوا النبي ﷺ واتصلوا به عن قرب، ومعظمهم من أهل المدينة سواء أكانوا من المهاجرين أم من الأنصار، فهؤلاء لا يعدون مجرد معاصرين للنبي ﷺ، وإنما كانوا تلاميذ مباشرين، حملوا إلى الناس جوهر الدين ممثلاً في القرآن الكريم وتعاليم الإسلام، وحملوا فرق ذلك آداب الإسلام ممثلة في سنة النبي ﷺ وحديثه الشريف

(1) انظر الضحاح للجوهري والقاموس المحيط للفيروز آبادي وأساس البلاغة للزمخشري مادة (مخضرم).

ومع ذلك كان انبهارهم بالإسلام وعمق الإيمان في نفوسهم يجعلهم بين مخافتين، مخافة أن تلاحقهم مساوئ حياتهم الجاهلية، ومخافة أن يمسه عذاب الله لشيء لم يرضه منهم، ولكنهم بعد حين أخذت نفوسهم تستقر، وبخاصة حينما استمعوا إلى مثل قوله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» وإلى مثل قول النبي ﷺ (خير القرون قرني) بعد ذلك وبخاصة بعد وفاة النبي ﷺ، ثم مخالطتهم لغيرهم، أخذوا يقدرون قدرهم الديني ويدركون مدى أهميتهم.

أما من عدا هذه الجماعة من تلاميذ النبي ﷺ وصحبه والقريبين منه، فقد كانوا لبعدهم عن معاشة النبي أقل عمقاً في الدين، وممكن أن يقال إن أبناءهم الذين ولدوا في الإسلام كانوا خيراً منهم فقهاً في الدين، وعمقاً فيه، ولا يخل هذا الحديث الشريف (خيراً لقرون قرني) فهم وأبنائهم من قرن النبي ﷺ.

وإذن ففي كل الأحوال كانت الفترة التي كان المسلمون قد قضوها من حياتهم في الجاهلية شجى في حلوهم، أو ماضياً بغيضاً إلى نفوسهم في أيسر الفروض، ومن هذا الجانب نشأت تسمية المخضرم للذي أدرك الجاهلية والإسلام، تعبيراً عن حياة الجاهلية.

وحين نتابع استعمال العلماء القدماء لوصف المخضرم، نجدهم لا يلتزمون مدلولاً ثابتاً، ولا يلتزمون أيضاً تعليلاً متفقاً عليه لسبب تسمية الشخص بالمخضرم، فنجد أحدهم كأبي الفرج الأصفهاني يعمم استعمال المخضرمية في كل من عاصر عهدين، بالإضافة إلى خضرمته الجاهلية والإسلام، فهو أحياناً يقول عن بعض من يترجم لهم، هو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وأحياناً هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية⁽¹⁾. ولكن ابن رشيق يسلك في فهم اصطلاح المخضرم منهجا يختلف عن الفهم السابق، فهو يرى أن الخضرمه تتبى

(1) انظر كتاب الأغاني للأصفهاني.

عن الكثرة والانتساع⁽¹⁾، وأن المخضرم إنما سمي بذلك لأنه جمع كل المزايا، أو لأنه يمتاز بمن عاش في عصر واحد، بأنه عاش في العصرين، كأنه استوفى الأمرين، أو نصيبه من الأمرين، وهو يعرف أن الأذن المقطوعة تسمى عند العرب مخضرمة ولكنه يحمل ذلك على أن المخضرم انقطع عن الجاهلية، من حيث الدين إلى الإسلام، فيكون إذن قد انتقل إلى خير كثير لا حدود له، وينقل ابن رشيق عن الأخفش قوله ماء مخضرم (بكسر الخاء والراء) إذ تناهى في الكثرة والسعة ويرى أن منه اشتقاق المخضرم لاستيفائه الأمرين معا.

وينتقل ابن رشيق رأياً آخر عن ابن قتيبة، وهو أن المخضرم لا يكون صحابياً وإنما يشترط أن يكون قد أسلم بعد وفاة النبي ﷺ، ولكن ابن رشيق ينكر هذا الرأي مستشهداً على خطئه⁽²⁾.

يبدو أن لفظ المخضرم في إطلاقه على من أدرك الجاهلية والإسلام، إنما بدأ استخدامه في الشعراء، بمعنى أنه بدأ الاصطلاح على أن الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام يسمى مخضرمًا، ثم توسعوا في إطلاقه فأطلقوه على الرجل الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وأطلقوه أيضاً على الشاعر الذي عاصر عهدين، كما يقال للشاعر الذي عاصر دولة بني أمية ودولة بني العباس، أنه مخضرم، ومما يدل على أنه لفظ المخضرم استخدم أولاً في الشعراء أن بعض علماء اللغة ظل يقصر تعريف المخضرم على أنه الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام⁽³⁾.

والبغدادى في تقسيمه للشعراء من حيث الزمن يجعل المخضرمين قسماً مستقلاً، حيث يقول إن الشعراء أربع طبقات، جاهلي قديم، ومخضرم، وإسلامي، ومحدث⁽⁴⁾، ومعنى ذلك أنه يراعي اختلاف الشعر باختلاف البيئات

(1) العمدة لابن رشيق 1- 113 .

(2) د. عبد الحليم حفني، الشعراء المخضرمون، ص 8.

(3) انظر خزانة الأدب للبغدادى 1- 268.

(4) المصدر السابق، 1- 269.

والعصور والأحداث، وإلا لما كان هناك داع لهذا التقسيم الزمني، وهذا التقسيم الذي يبرزه البغدادي، والذي رعاه كثير من العلماء والنقاد القدماء، هو ما لجأت إليه الدراسات الأدبية الحديثة في تقسيم الأدب العربي إلى عصور زمنية، ولكن الكثيرين ينسبون هذا إلى اختراع المستشرقين، ويرونه وليد فكرهم وجهودهم، وليس هذا الاستطراد هو ما يعنينا لذاته، وإنما يعنينا منه أن علماء الأدب القدماء يجعلون الشعراء المخضرمين طبقة مستقلة بأدبها ومعنى ذلك أنهم يراعون أن لأدبهم طابعاً معيناً، وخصائص تميزه عن غيره، ولكن الحديث عن أدبهم وخصائصه ينبغي أن يسبقه تحديد معنى الخضرم في الشعراء، هل هي مجرد إدراك الشاعر للجاهلية والإسلام؟ وهل إذا كان هناك شاعر أدرك الجاهلية والإسلام ولكنه لم يقل شعراً في الجاهلية، وإنما كان شعره كله في الإسلام، يسمى شاعراً مخضرمًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الفارق بين هذا الشاعر والشاعر الذي نشأ في الإسلام؟ فكلاهما كان شعره في الإسلام وحده، ومثل هذا يقال عن الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام، ولكنه لم يقل شعراً في الإسلام، وإنما كان شعره كله في الجاهلية كلبيد بن ربيعة، هل يسمى شاعراً مخضرمًا؟ وإذا كان كذلك فما الفرق بين هذا الشاعر والشاعر الجاهلي الذي لم يدرك الإسلام؟ فكلاهما كان شعره في الجاهلية وحدها.

ونستطيع أن نخرج من هذا التساؤل بشيء محدد، هو أن هناك فرقاً بين أن نقول هذا رجل مخضرم، وأن نقول هذا شاعر مخضرم، فالأول يقصد بخضرمته أنه جمع بين الدينين، دين الجاهلية ودين الإسلام، بمعنى أنه كان يدين بدين الجاهلية، ثم جاء الإسلام فأسلم، أما حين نتحدث عن شخص بوصفه شاعراً، فنقول إنه مخضرم، فهذا يعني أن ينبغي أن يعني أن الخضرم ليست منصبة على دينه وإنما على شاعريته، بمعنى أننا نقصد أو ينبغي أن نقصد حينئذ أن شعره تناول العهدين، عهد الجاهلية وعهد الإسلام، بمعنى أنه قال شعراً في كلا الزمتين، ونقول ينبغي أن نقصد لأن أحاديث القدماء لم تقف عند هذه النقطة

لتوليها شيئاً من توضيح أو اهتمام، وإنما انصب حديثهم على أن الخضرمة هي معاصرة للجاهلية والإسلام معاً، دون تفريق واضح بين الشاعر وغيره في هذه المعاصرة، ولعل لهم في ذلك بعض العذر، ومما يعذرون به أن التفريق بين الشعر الجاهلي والإسلامي في شعر المخضرمين بالغ الصعوبة والتعقيد فأغلب الشعراء المخضرمين لا يستطيع التفريق الواضح بين شعرهم الإسلامي وشعرهم الجاهلي، والقلة التي يستطيع هذا التفريق في شعرها، لا يستطيع ذلك في شعرهم كله، وإنما فيما ارتبط بمناسبة معينة، توضح أنه قيل في الجاهلية أو الإسلام، ذلك لأن هؤلاء الشعراء لم يدونوا شعرهم في حياتهم، ولم يدونه الجيل التالي لهم، وإنما بدأ التدوين بعد ذلك، وكان هم جامعي الشعر حينئذ حصر ما يمكن حصره من شعر كل شاعر معروف، دون التركيز على الزمن الذي قيل فيه، ولم يكن عندهم حينئذ إلا ربطه بالمناسبة إن عرفت مناسبتها ولم يكن تحديد المناسبات أو الأحداث في الشعر، وإنما كانت تذكر المناسبة من باب التوضيح للغرض من هذا الشعر، أو من باب سرد بعض الطرائف، أو نحو ذلك.

ونتيجة لهذا الغموض نلمس بوضوح أن الرواة وجامعي الشعر يعمدون غالباً إلى تحاشي التفصيل أو التحديد، لأنهم لا يملكون ذلك وبخاصة في نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام، فهم يتحاشون تحاشياً تاماً أن يحددوا ما قاله الشاعر في الجاهلية، وما قاله في الإسلام، لأنهم لا يملكون هذا التحديد، ومثال ذلك ما صنعه السكري حين جمع شعر الهذليين⁽¹⁾ وفيهم بعض المخضرمين كأبي خراش وأبي ذؤيب، فإنه جمعه لشعرهما يتحاشى نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام، ولو كان يملك هذا التحديد لعناه أن يثبته، كما عني باثبات المناسبات التي قيل فيها الشعر، فضلاً عن ناحية أخرى كان يدركها بعض النقاد، في الفارق بين الشعر الإسلامي والجاهلي للمخضرمين كالأصمعي الذي لاحظ أن

(1) انظر شرح أشعار الهذليين للسكري.

شعر الجاهلية أقوى من شعر الإسلام في شعر المخضرمين، وعلل ذلك بأن الشعر نزاع إلى الشر، يقوي وينشط في بيئة الشر، ويدبل ويضمحل في بيئة الخير، وضرب لذلك مثلاً بحسان بن ثابت، حيث يقول الأصمعي (الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره) ⁽¹⁾ وإذن فالأصمعي يقرر مذهباً ورأياً في الفارق بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام عامة لدى المخضرمين، فكان يهيم ويهم مثله أن يميز الشعر الجاهلي من الإسلامي في حديثه عن المخضرمين وشعرهم ولو للاستشهاد على رأيه، ولكننا لا نجد ذلك التمييز في الأصمعيات، ولا في غيرها من الكتب التي عنيت بجمع شعر المخضرمين، ولم يكن ذلك الخلط في أغلب الظن عفواً، وإنما دعت إليه دواع كثيرة أحاطت بشعر هذه الحقبة التي سبقت التاريخ العربي المكتوب وهو الذي بدأ بجهود التدوين في أواخر العصر الأموي، ومن أهم هذه الدواعي إلى الخلط بالقياس إلى شعر المخضرمين، أنه لم يكن في مدتهم تاريخ أدبي مكتوب، ولم تحدد الروايات الشفوية على وجه دقيق، أي شعرهم قيل في الجاهلية، وأيّه قيل في الإسلام.

ونخرج من هذا كله بأن تعبير الشاعر المخضرم، كان ينبغي ألا يطلق إلا على الشاعر الذي له شعر في الجاهلية، وشعر في الإسلام، حتى تتحقق الخضرمة في شعره، فإن الخضرمة في الدين غير الخضرمة في الشعر، ومثال ذلك لبيد بن ربيعة العامري لا شك في أنه مخضرم في الدين، بمعنى أنه عاش في الجاهلية جاهلياً وعاش في الإسلام مسلماً، وهو من أكبر شعراء العرب، ومن أصحاب المعلقات، ولكن شعره كله كان في الجاهلية، ولم يقل شعراً في الإسلام، فشعره جاهلي فقط، ولا يصدق عليه أنه مخضرم مع أن لبيداً نفسه مخضرم، وكذلك الشعراء الشباب في الإسلام الذين كانوا أسن قليلاً من النعمان بن بشير

(1) الشعر والشعراء لابن رشيقي 1- 305.

الشاعر الأنصاري، الذي كان أول مولود للأنصار بعد الهجرة⁽¹⁾، هؤلاء يصدق عليهم أنهم مخضرمون لأنهم أدركوا الجاهلية والإسلام، ولكن شعرهم كله كان في الإسلام، فشعرهم كله إسلامي، ولا يصدق عليه أنه مخضرم لأنهم لو يقولوا شعراً في الجاهلية.

ولكن العلماء القدماء رغم قرب زمنهم من المخضرمين لم يكن من المستطاع لهم تحديد الشعر الذي قيل في الجاهلية، والشعر الذي قيل في الإسلام من شعر المخضرمين إلا ما كان منه مرتبطاً بمناسبة، كشعر شعراء الرسول، حسان وكعب الله بن رواحة، الذي قالوه دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، فإنه معلوم أنه قيل في الإسلام، وكقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) التي ألقاها بين يدي النبي ﷺ وكقصيدة أبي ذؤيب الهذلي (أمن المنون وريبتها تتوجع؟) التي قالها بعد فقد أبنائه الذين ماتوا في فتح المسلمين لمصر، أما ما عدا هذا الشعر المرتبط بمناسبة جاهلية أو إسلامية، فلم يكن مستطاعاً لهم تحديد نسبته إلى الجاهلية أو الإسلام وفي أغلب الظن أنهم لذلك لم يركزوا حديثهم على خضمة الشعر نفسه، واكتفوا بالحديث عن الخضمة الدينية، وقد يقال: إن الشعر لا يمكن أن تتصور فيه الخضمة، فهو إما قيل في الجاهلية وإما قيل في الإسلام، فكيف يتصور شعر معين عاصر الجاهلية والإسلام؟ والجواب أن هذا غير منازع فيه، ليس هذا ما نعينه وإنما نعني أنه حينما يكون للشاعر شعر قاله في الجاهلية وشعر قاله في الإسلام، يمكن الموازنة بين الشعرين، على وجه هو أقرب ما يكون إلى الدقة في الموازنة، من حيث إن قائلها شخص واحد، بخلاف ما لو وازنا بين شعر قاله شاعر في الإسلام، وشعر قاله شاعر آخر في الجاهلية، فقد نجانب العدالة والدقة في الموازنة، بأن يكون أحد الشعارين أقوى شاعرية من الآخر، فإذا كان هذا الشاعر القوي إسلامياً، فحكمنا بأن الشعر

(1) تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ص 155.

الإسلامي أقوى، نكون قد ظلمنا الجاهلية، حيث اخترنا لها شاعراً ضعيفاً في شاعريته، ووضعناه في مجال الموازنة أمام شاعر أقوى منه، ولكن العلماء القدماء حين لم يتح لهم الوجه الدقيق الذي يستطيعون تعميمه على كل الشعراء المخضرمين، اضطروا إلى التجاوز وإلى غض النظر عن كون الشاعر قال شعراً في العصرين، أو في عصر واحد سواء في الجاهلية وحدها، أو في الإسلام وحده، وحينئذ سيختلف منهج الموازنة، فبعد أن كان يمكن أن تكون في شعر الشاعر نفسه، كما وازن الأصمعي بين شعر حسان الجاهلي وشعره الإسلامي، تصبح في جملة الشعر الإسلامي للمخضرمين، موازناً بشعرهم الجاهلي في جملة.

ومهما يكن من شيء فإن هذه البحوث المتعلقة بالخضرة، وبالصحبة للنبي ﷺ كانت في معظمها بعيدة بعداً شديداً أو يسيراً على الواقع، فهي إما معتمدة على البحوث اللغوية كالخضرة، وإما على العاطفة الدينية كالصحبة للنبي ﷺ، وفي كل الأحوال كان اعتمادها على الجانب النظري أشد من اعتمادها على التطبيق العملي، واعتمادها على العاطفة أكثر من اعتمادها على القواعد العلمية وتعدد آراء علماء الحديث، وكثرة اختلافهم في تحديد الصحبة للنبي دليل واضح على أن كل فريق أو أصحاب رأي كان يعتمد على عاطفته وميله الشخصي، أما لو اتجهوا إلى تحديد أسس عقلية أو علمية، فلن يكون هناك مجال واسع للخلاف.

ومثال الفجوة الكبيرة بين التعريفات النظرية لصحبة النبي ﷺ والجانب التطبيقي أنهم يعدون النعمان بن بشير من أصحاب النبي مع أنه من المؤكد أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة عند وفاة النبي ﷺ، لأنه ولد بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ومعنى ذلك أنه حتى وفاة النبي ﷺ لم يكن قد بلغ الحلم لأن بلوغ الحلم عادة يكون بعد العاشرة على تفاوت بين البالغين، والطفل الذي لم يبلغ الحلم لا يوصف بأنه قد صاحب النبي ﷺ، بل إن علماء الحديث يعلمون أنه حين تلتزم الدقة العلمية فلا يوصف من لم يبلغ الحلم بأنه مسلم ولا بأي شيء على وجه

التكليف⁽¹⁾، ولكنهم مع ذلك يعدونه من أصحاب النبي ﷺ، بل من المشهورين من أصحاب النبي ﷺ⁽²⁾ مع أنهم لو عرضوا هذا الوصف على أي تعريف مما عرفوا به صحبة النبي ﷺ، أو اشتراطوه لاستحقاق وصف الصحبة فلن يستقيم لهم، ولكنهم من الواضح أن مجرد رؤية النعمان للنبي ﷺ رغم أنه كان طفلاً صغيراً أكسبته شرفاً جعل علماء الحديث يتجاوزون حتى عن شروطهم التي اشتراطوها لتحقيق الصحبة، والنعمان قد ثبت أنه وهو طفل رأى النبي ﷺ، حين أراد أبوه بشير بن سعد الأنصاري أن يخصه دون سائر بنيهِ ببستان إرضاء لأم النعمان، وأبت أم النعمان إلا أن يشهد النبي ﷺ على هذه الوصية، أو هذه المحابة فذهب بشير بطفله النعمان إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يشهد على ذلك، فأبى النبي ﷺ قائلاً: لا أشهد، أولاً أشهد على ظلم في رواية أخرى⁽³⁾ بل هناك أمثلة أشد توضيحاً لهذه الفجوة التي نتحدث عنها، ومن هذه الأمثلة أبو ذؤيب الهذلي الشاعر، فالروايات جميعاً تتفق على أنه لم ير النبي ﷺ، وإنما حضر جنازة النبي ﷺ والصلاة عليه، ثم دفنه عليه السلام، ومع ذلك يعدونه من أصحاب النبي ﷺ ومن الذين رأوه⁽⁴⁾ ولعلمهم يعنون أنه رأى جنازة النبي ﷺ صلوات الله عليه⁽⁵⁾.

ومن يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نشر في كتب الأدب والتاريخ، يجد جمهور الشعراء يصدرن في جوانب أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها، وخالطت شغاف قلوبهم، ولشعراء (المدينة) القِدْحُ المَعْلَى في هذا الميدان، كالشاعر عبدالله بن رواحة الذي كان دائم الاستمداد من القرآن

(1) لأن التكليف في التشريع يبدأ من البلوغ.

(2) تلقيح فهوهم أهل الاثر لابن الجوزي 155.

(3) انظر صحيح البخاري.

(4) تلقيح مفهوم أهل الأرض 214.

(5) الشعراء المخضرمون، ص 18.

الكريم، يستلهمه في هجائه للمشركين، وفي كل ما نظم من أشعار، على شاكلة قوله :

شَهِدْتُ بَأَنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَ

وكان بجانب هؤلاء شعراء آخرون لم يبلغوا الشهرة، وقد رويت لهم أشعار تنم عن مدى إيمانهم العميق. كقول أبي صرمة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة رائعة :

وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

وكقول أبي الدرداء:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا ارَادَا

يَقُولُ الْمَرْءُ فَاؤْدَتِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَقْدَا

ومن الشعراء الذين لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة عبدة بن الطبيب⁽¹⁾ من شعراء الفتوح، فقد روى له صاحب المفضليات قصيدة فيها الكثير من معاني القرآن، كالتقوى، والبر بالوالدين، والحذر من النمام الذي يزرع الضغائن بين النسا، مستلهماً في ذلك كله آي الذكر الحكيم، يقول:

أَوْصِيَكُمْ بِثَقَى الْإِلَهِ فَإِنَّهُ

يُعْطِي الرِّغَائِبَ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

(1) شاعر مجيد ليس بالكثير، وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم. قال الأصمعي: أُرثِي بَيْنَ قَالَتِهِ الْعَرَبُ قَوْلَ عَبْدَةَ بْنِ الطَّبِيبِ:

وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهْدِمُوا

وَمَا كَانَ قَيْسٌ مِثْلَهُ مِثْلَهُ وَاحِدٌ

وَيَبْرُوا لِدِكُمْ وَطَاعَةَ أَمْرِهِ

إِنَّ الْأَبْرَّ مِنَ الْبَنِينَ الْأَطْوَعُ

وَأَعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ

مَتَصَرِّحاً ذَاكَ السُّمَامُ الْمُنْقَعُ⁽¹⁾

يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكُمْ

حَزْباً كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ⁽²⁾

وتحوّل شعراء قريش منذ فتح (مكة)، ودخلوا في دين الله يكفّرون عما
قدمت ألسنتهم بأشعار يعتذرون فيها لرسول الله ﷺ كقول عبد الله بن الزبيري:
يا رسول المليك إن لسانِي راتقٌ ما فتّقْتُ إذ أنا بُور⁽³⁾

إذ أجاري الشيطانَ في سننِ الفـي وَمَنْ مَالٌ مِيلُهُ مَثْبُورٌ⁽⁴⁾
أَمِنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ بِمَا قُلْتُ وَنَفْسِي الْفِدَاءُ وَأَنْتَ النَّذِيرُ

وحتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجعون عليه،
على شاكلة أبي سفيان بن الحارث:
أَرَقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ وَلَيْلُ أَخِي الْمُصِيبَةِ فِيهِ طَوْلُ
وَأَسْعِدَنِي الْبُكَاءُ وَذَاكَ مِمَّا أَصِيبُ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ

(1) يزجي : يدفع . السمَام : السم : المنقَع : القاتل.

(2) الأخْدَع : عرق في العنق إذا ضرب أجابته العروق.

(3) أي اني معتذر إليك عما صدر عني ، فأصلح بذا ما أفسدت من ذلك.

(4) سنن: طرق: مثبور : هالك.

لقد عَظُمَتْ مصيبتنا وجَلَّتْ
عشية قيل: قد قُبِضَ الرَّسُولُ
نبيٌّ كان يَجْلُو الشكَّ عَنَّا
بما يُوحى إليه وما يَقُولُ
وأَضَحَّتْ أَرْضُنَا مما عراها
تَكَادُ بنا جَوانِبُها تَمِيلُ
فَقَدَدْنَا الوحي والتَّزِيلَ فِينَا
يُروحُ به وَيَغْدُو جِبْرِيلُ
وذاك أَحَقُّ ما ذَهَبَتْ عَلَيْهِ
نَفُوسُ النَّاسِ أو كادت تَسِيلُ

إضافة إلى شعراء المدينتين الكبيرتين، شعراء نجد والبوادي، وفيهم الكثيرون يقبسون من أضواء الإسلام، كقول الحصين بن الحمام زعيم بني مرة الذبيانيين:

ويوم تسعَّرَ فيه الحروبُ
لَبَسْتُ إلى الرُّوعِ سِرِّيالها⁽¹⁾
فلم يبقَ من ذلك إلاَّ التُّقى
ونفَسٌ تُعالجُ آجالها
أُمُورٌ من الله فوق السماء
مقاديرٌ تزلُّ أنزالها⁽²⁾
أعوذُ بريي من المخزيا
ت يوم ترى النفسُ أعمالها
وخفَّ الموازين بالكافرين
وزلزلت الأرضُ زلزالها

(1) تسعر: تتقد. السريال: الدرع. راجع الاغاني 14/14.

(2) أنزالها: منازلها.

موضوعات الشعر

أشار الأصمعي قائلاً: (هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلماء جاء الإسلام سقط شعره) وأشار ابن خلدون إلى أن الشعر توقف أولاً الإسلام بما شغل العرب من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم، والملاحظ أن هؤلاء الشعراء قد واجهوا منذ البداية عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة وما تحمله من مظاهر التغيير في الأخلاق والسلوك والقيم الاجتماعية والروحية كما كان عليهم أن يشاركوا مشاركة مباشرة مستمرة في المعركة من جانبها الكلامي وأن هذا الضعف الذي لوحظ على الشعر الإسلامي كان قد بدأ قبل الإسلام فقد انقضى عصر الفحول ولم يبق إلا الاعشى الذي مات قبل أن يعلن إسلامه وليد بن ربيعة العامري الذي بلغ الستين من عمره ولم يبق عند ظهور الإسلام إلا شعراء مقلون بعضهم مجيد في قصائد مفردة ولكنهم لا يبلغون مبلغ هؤلاء الفحول ولم يجدوا أسلوباً جديداً يتلاءم مع القيم والقضايا الجديدة التي جاء بها الإسلام كما أن هناك شعراً موضوعاً قد حمل على شعراء هذه الفترة ولكنه لا يصلح دليلاً على نفي ضعف الشعر عند هؤلاء الشعراء لأن هذا الضعف يوجد في أشعارهم التي لا يختلف الباحثون في صحة نسبتها إليهم.

وترجع أسباب ذلك إلى تحريم الشعراء للكتابة في الخمر والفحش والمدح التكسبي فلا عصبية قبلية ولا منافرات ولم يعيش من شعر صدر الإسلام إلا الجيد منه والحسن والبعيد عن المحرم وحل حفظ القرآن محل حفظ الشعر فمن الشعراء من اقلح عن كتابة الشعر وانصرف إلى العبادة مثل لييد بن ربيعة العامري ومن الشعراء من اضطهد النبي ﷺ بشعره وهجاء ولم يصلنا سوى القليل من شعرهم مثل أبي سفيان بن الحارث وكعب بن الأشرف وفئة ثالثة ناصرته ﷺ وكانت ترد على أعدائه بالمثل لتثبيت موقفه مثل حسان بن ثابت وكعب ابن زهير وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وفئة رابعة أخيرة بقيت تكتب الشعر على

غرار ما كان عليه في عصر ما قبل الإسلام مثل النابغة الجعدي والحطيئة وأبي محجن الثقفي.

أما المديح فتحول من مديح تكسبي إلى مديح ناتج عن احترام الشاعر للمدوح وأعجابه به إذ انطبع المديح بطابع سياسي وديني لأنه كان يقال في مدح الرسول ﷺ.

ومن هنا نستطيع أن نرى أن الشعر في موضوعاته في هذا العصر يمكننا تقسيمه إلى أربعة أقسام:

1. الشعر الذي كان يتابع الغزوات والسرايا ويسجل أحداثها حيث كان الشعراء ينظمون أناشيد حماسية يتغنون بها بانتصاراتهم ويغرضون شجاعتهم وخير مثال ما قيل في معركة القادسية وما كتبه الشاعران أبو محجن الثقفي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي.

2. شعر الاهاجي الذي كان يدور بين شعراء المسلمين في يثرب وشعراء المشركين في مكة ويمكن أن نضيف إليه الشعر الذي قاله بعض شعراء المسلمين في هجاء بعض القبائل التي كانت لها مواقف ضد الاسلام والمسلمين.

3. شعر الرثاء الذي قيل في رثاء صرعى الغزوات والسرايا والمعارك سواء أكانوا من شهداء المسلمين أو من هالكى المشركين وتسجيل المواقف التاريخية لتخليدهم.

4. الشعر الذي قيل في مدح أبطال المسلمين وما قدموه من بلاء في هذه الغزوات والسرايا للسبب وارد الذكر في النقطة الثالثة نفسه.

يضاف إلى ذلك ما كتب من شعر في حروب الردة وشعر الفتوح الإسلامية وشعر فتنة عثمان وشعر الحنين إلى الديار والاهل وشعر الشكوى الذي أبداه الجنود من الولاة والعمال، والملاحظ أن هذه الأشعار على نسيج الأدب الشعبي فهي لا تبلغ مبلغ الأشعار المنسوبة في العصر نفسه إلى شعراء مجودين، وهناك

ظاهرة واضحة هي عدم نسبة الاشعار إلى قائل بحد ذاته أو تتنازع عدة شعراء في قطعة أو نص، ويسود الشعر الايجاز فهو لمحة سريعة وموقف خاطف وزاد القصاص ورواة الاخبار الشيء الكثير إلى قصص أبطال الفتوح وجهادهم في حروب القدس والروم. ومن الاستشهاد بشعر هذا العصر ما قاله قيس بن بحر الاشجعي مادحاً الرسول ﷺ:

معانا يمدح القدس ينكى عدوه	رسولا من الرحمن حقاً بمعلم
رسولا من الرحمن يتلو كتابه	فلما أنار الحق لم يتعلم
أرى أمره يزداد في كل موطن	علوا لرحمته الله محكم

وقال حسان بن ثابت في هجاء أبي سفيان بن الحارث وإن سنام المجد في آل هاشم

ومن ولدت أبناء زهرة منهم	بنو نبت مخزوم ووالدك العبد
وأنت هجين نيط في آل هاشم	كرام ولم يقرب عجائزك المجد
	كما نيط خلق الراكب القدح الفرد

وقال كعب بن مالك راثياً الحمزة عم الرسول محمد ﷺ:

بكت عيني وحق لها بكاهها	وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الاله غداة قالوا	أحمزة ذاكم الرجل القتل
أصيب المسلمون به جميعاً	هناك وقد أصيب به الرسول

وقال عبد الله بن رواحة في مؤتة مرتجزاً:

أقسمت يا نفس لننزلنه	لنزلن أو لنكرهنه
أن أجلب الناس وشدوا الرنه	مالي أراك تكرهين الجنه

حسان بن ثابت

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي من سادة قومه واشرافهم، وكانت أمه خزرجية أيضاً، شاعر من المعمرين يقال أنه عاش في الجاهلية ستين عاماً ومثلها في الإسلام، وهو شاعر مخضرم أدرك عصر ما قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام. قيل أنه توفي قبل الأربعين وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين للهجرة، له صلة قرابة ورحم مع الرسول محمد ﷺ كونه من بني النجار أخواله ﷺ. ومن اخباره قبل الإسلام أنه كان يتردد على بلات الغساسنة والمناذرة وكان لسان قومه في حروبهم مع الاوس وقد اصطدم مع شاعريها قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت، وأهتم به النابغة في سوق عكاظ لكنه قدم عليه الاعشى. دخل حسان الإسلام بعد الهجرة. أنبرى لهجاء شعراء قريش الذين أخذوا بهجون الرسول محمد ﷺ وصحبه بحث منه ﷺ وكان يدعو له (اللهم أيده بروح القدس)، واستمع ﷺ إلى بعض هجائه فقال: (لهذا أشد عليهم من وقع النبال) وفي حديث له ﷺ (أمرت عبد الله بن رواحة فقال أحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال أحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفى واستشفى) وكانت طريقته في الهجاء أنه يهجو قريش بالأيام التي هزموا بها ويعيرهم بالمثالب والأنساب، أهداه الرسول محمد ﷺ بستاناً وأهداه سيرين أخت زوجته مارية القبطية، لقب شاعر الإسلام، وشاعر الرسول وخلف ديواناً ضخماً دخله كثير من الشعر المصنوع.

قال من قصيدة يتوعد فيها قريشاً بنصرة قومه لرسول الله ﷺ، ويهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وذلك قبل فتح مكة:

عدمنا خيلنا إن لم تروها

ثبير النقع، موعدها كداء⁽¹⁾

(1) النقع: الغبار، كداء: الشية العليا بمكة مما يلي المقابر وهو الملقى. وفي الحديث أنه دخل مكة عام الفتح من كداء، يهدد قريشاً ويتوعدهم بحرب حامية، وقوله (عدمنا خيلنا) : هو كقولك (لا حملتني رجلي ان لم تسر اليك، ولا نفعني مال ان لم أنفقه عليك) ومعناه الدعاء.

يُبارين الأعنة مصعدات

على أكتافها الأسلُ الظماء⁽¹⁾

تظلُ جِيادنا مُتمطرات

تُلطمهُنَّ بالخمرِ النساءُ⁽²⁾

فإمّا تعرضوا عنا اعتمرنا

وكان الفتحُ وانكشفَ الغطاء⁽³⁾

والأفاصبروا لجلاد يوم

يُعزُّ الله فيه مَنْ يشاء⁽⁴⁾

و(جبريل) أمينُ الله فينا

(1) يبارين الأعنة: يجارين الأعنة في اللين وسرعة الانقياد، مصعدات: ذاهبات صعدا، وفي رواية: (يبارين الأسنة مصغيات) ومباراتها الأسنة أن يضجع الفارس رمحه فيركض الفرس ليسبق السنان، ومصغيات: مميلات رؤوسها. والأسل الظماء: الرماح المتعطشة الى الدماء.

(2) متمطرات: مسرعات يسبق بعضها بعضاً، وتلطمهم مزيد لطمه يلطمة لطمأ: ضرب خده بكفه مفتوحة، والخمر: جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها، يقول: تسرع جِيادنا فتتبع النساء يضربن خدودها بخمورهم لتردها.

(3) اعتمرنا: أدينا العمرة، وهي في الشرع زيارة البيت الحرام بالشروط المخصوصة للمعرفة. والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تكون للإنسان في السنة كلها، والحج في وقت واحد في السنة = ولا يكون الا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة، وهي مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة، المعنى: ان لم تتعرضوا لنا حين تغزوكم خيلنا، واخيلنم لنا الطريق قصدنا الى البيت الحرام وزرناهُ وتم الفتح وانكشف الغطاء عما وعد الله به النبي ﷺ من فتح مكة.

(4) الجِلاَد: التضارب بالسيوف في القتال.

وروح القدس ليس له كفاء⁽¹⁾

وقال الله قد أرسلت عبداً

يقول الحق إن نفع البلاء⁽²⁾

شهدت به، فقوموا صدقوه

فقلتم: لا نقوم ولا نشاء⁽³⁾

وقال الله قد يسرت جنداً

هم (الأنصار) عرضتها للقاء⁽⁴⁾

لنا في كل يوم من (معد)

سرباب أو قتال أو هجاء⁽⁵⁾

فنحكم بالقوا في من هجانا

ونضرب حين تختلط الدماء⁽⁶⁾

ألا، أبلغ (أبا سفيان) عني

-
- (1) روح القدس: جبريل، والقدس: الطهارة، والكفاء، النظير.
 (2) عبداً: يعني سيدنا رسول الله ﷺ. والبلاء: الامتحان والاختبار، يكون في الخير وفي الشر.
 (3) شهدت به: آمنت وصدقت.
 (4) الأنصار: أنصار النبي ﷺ، غلبت عليهم الصفة فجرؤت مجرى الأسماء والعرضة: هنا القوة على القتال، أي همتها ودينها لقاء القروم.
 (5) لنا: يعني معشر الأنصار، معد: يريد قريشاً لأنهم عدنا نيون.
 (6) نحكم: نمنع. والقافية: القصيدة.

فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبٌ هَوَاءٌ⁽¹⁾

بَأْنَ سَيُوفُنَا تَرْكُكَ عَبْدًا

وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ⁽²⁾

هَجَوْتُ (مُحَمَّدًا)، فَأَجِبْتُ عَنْهُ

وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجِزَاءُ⁽³⁾

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ ۖ

فَشَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ⁽⁴⁾

هَجَوْتُ مُبَارِكًا بَرًّا حَنِيفًا

(1) فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ: التفات عن الفيبة إلى الخطاب؛ وهو أسلوب بلاغي كثير في كلام العرب. والمجوف: الجبان الذي لا قلب له كأنه خالي الجوف من الفؤاد ومثله النخب والهواء.

(2) بَأْنَ سَيُوفُنَا: متصل بقوله (ابلق)، وادخل الباء عليه لأنهم ضمن معنى أخبر، تركتك عبداً؛ أي ذليلاً. وعبد الدار: بطن من قریش، والإماء الجواري.

(3) الجزاء: المكافأة على الشيء ان خيراً وان شراً، ويروي أن النبي ﷺ حين سمع منه هذا البيت، قال: "جزاؤك على الله الجنة يا حسان".

(4) أَتَهْجُوهُ: الاستفهام فيه انكاري، أي ما كان ينبغي ان تهجوه ولست من اكفائه ونظرائه، وقوله فَشَرُّكُمْ لَخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ: جار على أسلوب الكلام المنصف، وهو ان ينصف المتكلم من نفسه فيضطر السامع الى الازعان، ومنه قوله تعالى ﴿وَلِنَا أَوْ لِإِيَّاكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، = فمعلوم ان المتكلم ومن معه على هدى وان المخاطبين في ضلال، وإنما ابهم الأمر بين الفريقين ليكون ادعى للمخاطب الى الازعان للحق وترك العناد، اذ يرى المتكلم ساوياً بينه وبين نفسه.

أَمِينُ اللَّهِ شَيْمُهُ الْوَفَاءُ⁽¹⁾

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ

وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ⁽²⁾

فَإِنْ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعَرِضِي

لِعَرِضٍ (مُحَمَّدٍ) مِنْكُمْ وَقَاءُ⁽³⁾

لِسَانِي صَارُمْ لَا عَيْبَ فِيهِ

وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ^{(4) (5)}

الشرح والتحليل

يتحدث الشاعر عن وسائل القتال مهدداً ، الاعداء من قريش فيقول: فقدنا الخيول أن لم تسرع مندفة بتأثير الغبار حتى تصل إلى (كداء) وتدخل مكة وتعيد الحق من المغتصبين وهذه الخيول تسابق اطراف الرماح التي وضعت على اكتافها متعطشة إلى دماء الاعداء وتواصل سرعتها حتى تقتحم ديار قريش

(1) الحنيف: الذي يتحنف عن الباطل ، أي يميل عنه إلى الحق.

(2) يقول: ما دام الأمر كذلك، فلستم هناك. هو من العزة والمنعة والوجاهة ، بحيث لا ينال منه ولا يرتقي إليه ، وأنتم من هوان الشأن بحيث لا يؤبه بكم ، فمدحكم لرسول الله ونصرتكم له وهجاؤكم إياه: كل أولئك سواء لا يضره هجاؤهم ولا ينفعه مدحكم ونصرتكم.

(3) العرض: النفس.

(4) شبه لسانه بالسيف الصارم أي القاطع يقطع السنة الأعداء ، وشبه شعره بالبحر الصافي البعيد الغور الكثير الماء فلا تكدره الدلاء التي يستقي بها كما لا ينال من شعره نقد ناقد ولا طعن معاند.

(5) الأساس في تاريخ الأدب العربي ص153.

فتفزع النساء فيخرجن كاشفات الرؤوس يحاولن رد الخيول بخمارهن. نحن قادمون وأمامكم الخيار بين شيئين فأما أن تفسحوا لنا المجال وتخلوا الطريق فتدخل مكة بسلام ونؤدي العمرة والا فاصبروا واثبتوا لحرب لنا النصر فيها بعون الله تعالى. ثم يتحدث الشاعر عن عناصر القوة المعنوية فيقول لقد هيا الله لنصرة الإسلام الانصار الذين وهبوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وهم يواجهون من اعدائهم القرشيين القتال والسب والهزاء. إن الانصار ينتصرون ويردون على اعدائهم بهزاء أقوى وبقتال عنيف يسيل الدماء ويكثر القتلى، وعندما أرسل الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق للناس كافة آمن الانصار به وكفرت قريش وكابرت وعاندت الانصار ولم تؤمن، أما الانصار فإن الله يؤيدهم وينصرهم برسوله ﷺ وجبريل (ع) أمين الوحي الذين اختاروا الله ليكون لهم قوة ضاربة ليس لها نظير.

- قوله (عدمنا الخيل) دعاء يوحى بالتصميم على الكفاح.

- قوله (تثير النقع) كناية عن كثرة الخيل وسرعتها.

- قوله (الاسل الظماء) أستعارة مكنية صورت الرماح حيواناً مفترساً.

- قوله (تلطمهن بالخمير النساء) كناية عن عنف الزحف.

تبدو الأفكار في القصيدة مرتبة والعاطفة صادقة وان صور الشاعر منتزعة من البيئة وظهر آثار الثقافة الإسلامية واضحاً في اقواله: (يغني الله فيه من يشاء) و(جبريل أمين الله) و(روح القدس).

كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، أبوه زهير من فحول الشعراء في عصر ما قبل الإسلام، من قبيلة مزينة في أسرة فيها أكثر من شاعر تلقن كعب الشعر عن أبيه مثله مثل أخيه بجير والحطيأة، وكان زهير يحفظهم الشعر ومنه شعره ويقولون عن كعب أنه كان يخرج به أبوه إلى الصحراء فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب أن يجيزه تمريناً ودريه، إلا أن كعباً كان في عصر ما قبل الإسلام شاعراً معروفاً أكثر من الحطيأة وسبقه أخوه بجير إلى الإسلام فهجاه كعب ثم هجا رسول الله ﷺ فسمع ﷺ شعره وتوعده فأهدر دمه وكتب إليه بجير، فقدم إلى المدينة وبدأ بأبي بكر (رض) ودخل المسجد وألقى قصيدته اللامية فكساه الرسول محمد ﷺ بردته فسميت قصيدته بـ (البردة)، ثم حسن إسلامه وأخذ يصدر شعره عن مواعظ وحكم باهتداء من القرآن الكريم وظهرت المعاني الإسلامية في شعره من أن الله هو رازق لعباده وغير ذلك وله ديوان شعر مشروح يضم ما قاله من شعر في عصر ما قبل الإسلام وما بعد إسلامه، ووضح أثر الإسلام في ذلك الهجاء الذي يدعو إلى الصفح الجميل والابتعاد عن التوعد والتهديد.

لم يحدثنا الرواة كثيراً عن حياة كعب، فنحن لا نكاد نعلم عنها ما يستحق الذكر إلا خبر إسلامه، واعتذاره إلى النبي بقصيدته الشهيرة، وذلك أن بُجيراً أخا كعب وفد إلى محمد ﷺ في أواخر السنة السابعة للهجرة فأسلم، فاستاء كعب من أخيه، وقال فيه أبياتاً يؤنبه ويحثه على الارتداد.

وبلغت أبياته النبي ﷺ فأهدر دمه، ثم شهد بجير فتح مكة وانتصار محمد ﷺ، فأرسل إلى أخيه كعب يحذره ويخبره بأنخذال قريش، وفرار عبد الله بن الزبيري، وقال له: "قد أوعد الرسول رجالاً بمكة فقتلهم، وهو والله قاتلك أو

تأتيه فتسلم"، فاستطير كعب ولفظته الأرض⁽¹⁾ ثم قدم المدينة متكرراً، واستجار بأبي بكر، فأتى به المسجد وهو متلثم بعمامته، وقال: "يا رسول الله رجل يبائعك على الإسلام"، فبسط النبي ﷺ يده فحسر كعب عن وجهه وقال: "هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير، فتهجمته الأنصار وغلظت عليه، ولانت له قريش وأحبوا إسلامه وإيمانه، فأمنه محمد ﷺ فأنشده كعب قصيدته (يانث سعاد) فسر بها الرسول . ولما وصل الى قوله:

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ، مُهْتَدًى مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ، مَسْلُوكُ

خلع عليه محمد ﷺ برده⁽²⁾ وقد بذل معاوية لكعب فيها عشرة آلاف درهم فلم يبيعها، فلما مات اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم وقيل بثلاثين، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، ويقال إنها وصلت إلى سلاطين آل عثمان، وهي البردة التي يلبسها الخلفاء في العيدين.

ومدح كعب في قصيدته المهاجرين من قريش، وعرض بالأنصار لغلظتهم عليه، فأنكر المهاجرون قوله في الأنصار، وقالوا: "لم تمدحنا إذ هجوتهم"، ولم يقبلوا ذلك حتى قال فيهم:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ، فَلَا يَزَلْ فِي مَقْنَبِ مَنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ⁽³⁾

وكانت وفاة كعب في خلافة معاوية، وجعل بعضهم⁽⁴⁾ موته في السنة الرابعة والعشرين للهجرة، مع أنهم ذكروا رواية البردة، فكان عليهم أن يتنبهوا

(1) لفظته الأرض: أي انه صار له مأوى فيها.

(2) البردة: الثوب المخطط.

(3) المقنب: جماعة الخيل الجياد ما بين الثلاثين الى الثلاثمائة، وأراد بالمقنب: جماعة الأنصار، يقول: من أراد كرم الحياة فليكن في جماعة من صالحى الأنصار.

(4) جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية.

إلى أن الشاعر أدرك الخليفة الأموي الأول، لأن معاوية لم يفكر في اشتراء البردة من كعب إلا بعد أن تبوأ سدة الخلافة.

آثاره

أبيات متفرقة في كتب الأدب، أشهرها لاميته (بانث سعاد) وهي معدودة من المشويات، وقد شرحها كثيرون، وشطّرها غير واحد.

1. بانث سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول
2. وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
3. كل ابن انثى وأن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
4. نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
5. مهلا هداك الذي أعطاك نافلة قرآن فيه مواعيط وتفصيل
6. لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وأن كثرت في الأقاويل
7. إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
8. في عصبه من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
9. زالوا فما زال أنكاس ولا عند اللقاء ولا ميل معازيل
10. لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

معاني المفردات

1. بانث: فارقته، متبول: سقيم، متيم: مدلل بالحب، لم يفد: لم يجد من يفديه، مكبول: مقيد.
2. البين: الفراق، أغن: صفة الغزال الذي صوته غنة، غضيض الطرف: فاتر النظر منكسر الاجفان.
3. حدباء: مؤنث أحذب وهو الذي تقوس ظهره، آلة حدباء: التابوت، النعش.

4. نبئت: أخبرت، أو عدني: هددني، مأمول: مرجو.
5. النافلة: العطية الزائدة على ما يجب من العطاء، تفصيل: توضيح.
6. لا تأخذني: لا تتهمني، الوشاة: جمع واش وهم ناقلو القيل والقال.
7. يستضاء به: يهتدي به، مهند: سيف منسوب إلى الهند التي عرفت بصناعة السيوف الجيدة.
8. عصبية: جماعة، قائلهم: المراد به عمر بن الخطاب (رض)، زولوا: أي هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة.
9. أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف الجبان، كشف: جمع أكشف وهو من لا ترس له أو هم الشجعان الذين لا ينكشفون في الحرب، الميل: من لا سيف له، معاويل: من لا سلاح له.
10. حياض الموت: موارد الهلاك، تهليل: جبن وفرار أي لا يطعنون إلا في الصدر لأنهم لا يهربون.

الشرح والتحليل

يبدأ كعب بن زهير بالبكاء على فراق حبيبته سعاد على غرار الجاهليين فلقد فارقتهم واسقمه الحب وما حبيبته إلا ظبي مكحول الطرف مسترخي الاجفان ولكنها لا تقي بالوعد ولا تتمسك به، ثم ينتقل الشاعر إلى الاعتذار من النبي محمد ﷺ ووصف حالته مع الوشاة فلقد أنباء الكاذبون بأنه سيكون في عداد الموتى على يد رسول الله ﷺ فسألهم أن يتركوه فقدره حاصل لا محالة وكل إنسان وأن طالت حياته لا بد أن يحمل على نعث. لقد وصلت أخبار مفادها أن رسول الله ﷺ يريد قتله ولكنه ﷺ صاحب العفو فلقد هداه الله بالقرآن الواعظ. ثم ينتقل معذراً منه ﷺ مبرراً ساحته فيقول: لا تصدق أقوال الوشاة وكلامهم مهما كثر فلقد حضرت مجلساً هائلاً ورأيت أمراً عظيماً وسمعت كلاماً عجيباً فالتفتي ﷺ نور يهدي الناس وسيف إلهي مسلول في وجه الباطل من

بني قريش الساكنين أودية مكة وبطاحها الذين أسلموا وهاجروا مع الرسول محمد ﷺ ولا يقع الطعن إلا في صدورهم لأنهم لا يهربون ولا ينهزمون عن موارد الحمام والموت.

إن الملاحظ على هذه القصيدة أنها كثيرة الأغراض على غرار شعر ما قبل الإسلام، ففيها الغزل التقليدي ومدح الرسول محمد ﷺ والاعتذار منه كما فيها مدح المهاجرين وذم الانصار المبطن، ويظهر جلياً ضعف النفس الديني فهو لم يظهر كما ظهر عند حسان بن ثابت رغم وجود تعابير إسلامية جيدة في القصيدة (رسول الله، القرآن، أسلموا).

إن كعب بن زهير يؤمن بحكم الله وتقديره فوضع ذلك شعرياً حينما أثبت أن الله سبحانه وتعالى مسؤول عن عباده وما قدره الله للإنسان لا بد من أنه حاصل لا محالة.

وتبدو في القصيدة مجموعة من الحكم ولا شك فإن ذلك متأثراً من تأثير حكمة أبيه الشاعر زهير بن أبي سلمى أحد شعراء المعلقات.

انتقى الشاعر كعب لقصيدته الفاظ تلائم وتتاسب كل غرض من أغراض القصيدة فنلاحظ الكلام السهل اللطيف المستعمل في حديثه عن حبيبته (سعاد) إلى جنب التراكيب المتينة والعبارات الخشنة والمسبوكة في بعض الأحيان لأن ذلك وليدة تأثير الصحراء العربية في شعر عصر ما قبل الإسلام بشكل عام.

أما عن هذه القصيدة التي عرفت بالبردة فقد ذاع صيتها وانتشرت كثيراً وقد شرحت مراراً وخمست وشطرت وظل الشعراء على مر الحقب التاريخية يبارونها ويتباركون بها لأنها بالفعل لوحة رائعة من لوحات قصيدة الاعتذار في الأدب العربي في أطارها الجديد في عصر صدر الإسلام حينما يكون ذلك عن إيمان وعن إرادة لمصلحة سماوية ودون أية مصلحة دنيوية.

علمنا في كلامنا على الخطيئة أن كعباً كأبيه زهير يهذب شعره، وينقي ألفاظه، ويتخير معانيه، ولا عجب أن يشبه الولد أباه وهو سره، ونجد في

(مشوبته) أن له خاصة زهير في براعة التشبيه والتصوير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال الحكمية، وقد نكون منصفين إذا قلنا: إن زهيراً وكعباً والحطية ينتحلون مذهباً أدبياً ذا صبغة واحدة، على أننا نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى أن كعباً قلده فيه أستاذ أبيه أوس بن حجر، ولعله مصيب برأيه، فإن زهيراً كان رواية أوس، وعنه أخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشابيه والصور المادية.

وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره، فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو المذهب الأوسي، على رأي الدكتور، مع إثارة الغريب من الألفاظ تشبيهاً بأستاذ أبيه، فنحن الآن أمام مذهب ندعوه زهيرياً أو أوسياً إذا ذهبنا إلى أبعد من زهير⁽¹⁾.

وقد استهل كعب مشوبته التي اعتذر بها إلى الرسول، متغزلاً واصفاً ثغر حبيبته، شاكياً هجرها، وإخلافها، ومواعيدها العرقوبية، فترى الصور الحسية تتراكم في أوصافه ويتبع بعضها بعضاً، ولاسيما تشبيه حلاوة الثغر وبرودته بخمرة شُجبت بماء بارد، ثم إلحافه بوصف هذا الماء ليبالغ في تصوير برودته وصفائه، وانظر إلى قوله: "لكنها خلة قد سيط من دمها..." أراد أن يصفها بالكذب والاختلاف والفجع والتبديل فصور لك هذه الصفات ممزوجة بدمها، ثم انظر إلى قوله: "إلا كما تُمسك الماء الغرايب..." فهو لم يجد لديه غير التصوير الحسي لتمثيل نكثها العهود، ثم الحكمة أيضاً وضرب المثل في قوله: "ولا تمسك بالعهد..." إن الأماني والأحلام تضليل...، وكانت مواعيد عرقوب...".

وينتقل إلى وصف الناقة فيبدع إبداعاً يجاري فيه طرفه، ويتلاعب بالمعاني تلاعباً لم يسبقه إليه أحد، وفي هذا القسم تكثر الصور المادية وتكثر الألفاظ الغريبة فيصف ضخامة عنقها وطولها، وعظم وجنتيها، ونعومة جلدها، ثم يشبه

(1) يرى الدكتور طه حسين أن النابغة أحد أساتذة المذهب الأوسي لأن على شعره طابعه الخاص.

وجهها في صلابته بمعول من حديد أو حجر مستطيل، وذنبها بجريد النخل، وقوائمها بالرماح الصلبة، وهي في سرعتها لا تمس الأرض إلا تحليلاً⁽¹⁾ ولا تحتاج إلى تفعيل يقيها الحجارة الصلبة أخفافها، ويصف حركة ذراعيها وسرعة تقلبها، فيرينا صورة مادية رائعة لم يستبق إليها، ويستطرد معها إلى وصف شدة الحر.

وبعد أن ينتهي من هذه الصورة القصصية البارزة الجمال، ينتقل إلى مدح النبي ﷺ والاعتذار إليه، ومدح المهاجرين من قريش، وفي هذا القسم ترق ألفاظه، ويقل غريبه إلا في وصف الأسد، ولا بدع فإنه مقام استعطاف ولين.

والشاعر جاهلي يجعل لكل مقام مقالاً، فإذا اعتزل أو استعطف أو رثى رقت عاطفته ورقت ألفاظه، وإذا افتخر أو مدح اشتدت عاطفته، فتجزل ألفاظه، ويشد أسرها، وإذا وصف ناقتة والقفار الموحشة والسباع الضارية، خشنت عاطفته، وخشنت ألفاظه معها، وفي هذا القسم تنتهي (مشوبة) كعب.

ونرى أن كعباً مدح الرسول بأسلوب جاهلي صرف، دون أن يشير إلى فرض من فروض الدين الإسلامي، أو إلى آية من القرآن، ذلك بأنه كان يجهل حقيقة الإسلام، يوم نظم قصيدته، وهو لم يسلم إلا رهبة ورفقاً، فإذا قابلنا وعرفنا الصحيح من المنحول، ولو لن تكن هذه القصيدة قيلت في النبي ﷺ واشتهر كعب بها، لما جاز لنا أن نعهده من الشعراء المخضرمين لأن النفس الجاهلي فيه أقوى من النفس الإسلامي.

وبعد فإن في أبيات المدح ما في غيرها من تأثير المذهب الزهيري، فالصور المادية قوية، ولا سيما تشبيه النبي ﷺ بالأسد ثم وصف هذا الأسد وصفاً قصصياً عرفناه بزهير، وتظهر لنا حكمة زهير في قوله: "كل ابن أنثى وإن طالت

(1) مست الأرض تحليلاً: أي ماساً سيرا، كما يحلف الإنسان ليفعلن هذا الشيء فيفعل منه اليسير ليتحلل به من القسم.

سلامته..."، ويظهر لنا إيمان زهير على جاهليته في قوله: "فكل ما قدر الرحمن مفعول..." .

وما أجمل التصوير على بداوة المعنى في وصفه هيبة الرسول ﷺ، وما يستولي من الفزع على الماثل في حضرته، وكأن الشاعر أراد الاعتذار من خوفه فلم يجد غير الفيل الضخم مثلاً للجرأة فقال: لو وقف الفيل موقفي ورأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، لظل يرعد، فلا لوم علي إذا هبت الرسول ﷺ فهو أهيب عندي من أسد في بطن عثر، كثير الصيد، شديد الضراوة. أو ليس في ذلك الاعتذار، وفي ذلك التمثيل سذاجة جاهلية خشنة، ولكنها لطيفة مستجيبة؟⁽¹⁾.

(1) بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص 267.

الخطيئة

اسمه جرول، وتسمى أمه الضراء كانت لاوس بن مالك العبسي حيث نشأ الشاعر في حجره مغموراً في نسبه وجعله ذلك قلقاً مضطرباً وزاد في اضطرابه قلقه وضعف جسمه وقبح وجهه ولقب بالخطيئة لفقره ودماته، لزم زهير بن ابي سلمى حيث علمه احكام صنعة الشعر وهو راوية شعر كعب بن زهير فهو من مدرسة زهير التي كانت تعنى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة. لا يعرف زمن اسلامه، فهل اسلم بعد فتح مكة؟ ام كان ذلك في وقت متأخر إلا أن له شعراً في حروب الردة إذ يؤيدها، جعله ابن سلام في كتابه (طبقات الشعراء) في الطبقة الثانية، وشعره في المديح والهجاء، له مدح في سادة القبائل وهما الزيرقان بن بدر الذي نقل امره إلى الخليفة عمر بن الخطاب فحكم حسام بن ثابت الذي حكم عليه بالحبس ومن السجن كتب لعمر ابياتاً رقى فيها قلب عمر، واطلق سراحه لكنه اشترى منه اعراض الناس بثلاثة الاف درهم، بالغ الرواة في اتهامه بالبخل ودناءة النفس وفساد الدين وربما يكون رقيقه بينما تدلنا بعض الابيات التي كتبها انه حسن الاسلام وقد نفذ الإيمان إلى قلبه. الخطيئة مصور، فنان، دقيق الملاحظة، يرسم بالكلمات صور الكاريكاتور بسخرية لاذعة لمن يريد ان يكتب عنه بحيث تصبح وثيقة تاريخية خالدة، وبه فخر بنو انف الناقة إذ قلب هجاء عشيرتهم إلى مديح مما دلل على امتلاكه قدرة رائعة.

نموذج من شعره:

1. وطاوى ثلاث عاصب البطن ببداء لم يعرف بها ساكن رسما
2. أخي جفوة فيه من الانس وحشة يرى البؤس من شراسته نعماً
3. وأفراد في شعب عجوز أزاءها ثلاثة أشباح تخالهم بهما
4. حفاة عمرة ما اغتدوا خبز ملة ولا عرفوا للبرمذ خلقوا طعماً

5. رأى شبحاً وسط الظلام فراحه فلما رأى ضيفا تشمر واهتما
6. فقال: هيا رياه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحم
7. فقال ابنه لما راه بحيرة أيا ابتي أذبحني ويسر له طعاما
8. ولا تعتذر بالعدم على الذي طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
9. فروى قليلاً ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما

معاني المفردات:

1. طأوى ثلاث: جئع منذ ثلاث ليال، عاصب البطن: رابط بطنه من شدة الجوع، المرملة: الفقير الذي نفذ زاده، بيداء: صحراء، الرسم: اثر النديار والاطلال.
2. اخى جذوة: غليط الطبع، الشراسة: سوء الطبع والخلق.
3. الشعب: الطريق في الجبل، ازاءها: امامهم، البهم: صغار الضان والماعز.
4. ما اغتذوا: لم يأكلوا، خبز ملة: الخبز الذي ينضج على الجمر والرماد، البر: القمح.
5. راعه: اخافه وافزعه، تشمر: ابدى اهتماماً ملحوظاً.
6. هيا رياه: يا ربي، القرى: ما يقدم للضيف من طعام، تا الليلة: هذه الليلة.
7. يسر: هيء له وقدم، الطعم: الطعام.
8. العدم: الفقر المدقع، علّ: لعل. طرا: أصلها طرا، يوسعنا ذما: يبالغ في ذمنا.
9. روى: فكر في الامر وتدبر، احجم: امتنع وتراجع برهة: لحظة، هما: عزم وقصد.

الشرح والتحليل

عرض الشاعر صورة لبؤس أسرته تمهيداً لقصة الكرم إذ إن رب هذه الاسرة جائع منذ ثلاث ليال يربط بطنه من شدة الجوع ويعيش في هذه الصحراء الموحشة التي لم ينزل بها احد وليس فيها معالم للحياة والعيش ولقد اثرت هذه الصحراء في طبعه فزاد غلطة وخشونة جعلته ينعم بهذه الحياة الخشنة وقد انزل أسرته معه في هذا المكان القفر: امرأته العجوز واطفاله الثلاثة الذين هزهم الجوع فصاروا أشباحاً يحسبهم الناظر من الماعز أو من حملان الضان لضعفهم ومرضهم. وهم حفاة الاقدام عراة الاجسام لانهم لم يذوقوا الخبز الذي تتضججه النار ولا يعرفون طعماً للقمح منذ ولدوا. رأى رب هذه الأسرة شبهاً قادمًا في الظلام فاضطرب وخاف أن يكون لصاً أو وحشياً فلما تبين له أنه ضيف تأهب للترحيب به ولكنه اصابه الهم لأنه لم يجد ما يقدمه لضييفة من طعام لذلك راح يهتف مناجياً ربه: يا الهي ضيف ولا طعام له وحقك يا ربي أرزقني برزقه ولا تحرمه من اكل اللحم هذه الليلة وفي هذا الحال راه ابنه في حيرته وهمه فاسرع إليه يقدم نفسه ضحية للكرم قائلاً: أذبني يا ابي وقدم لحمي طعماً لضيفك، ولا تعتذر بالفقر فربما ظن الضيف أن لنا مالا لم نقدمه فيبالغ في ذمنا فتحير الوالد واخذ يفكر وظل في صراع بين عاطفة الاب الحنون وعاطفة العربي الكريم ويبقى في هذه الحيرة فترة من الزمن حتى لقد حاول ان يذبح ابنه فعلاً لولا ان تدخل لطف الله في آخر لحظة.

القصيدة لوحة رائعة تجسد مفهوماً مهماً هو الكرم وقيمه في حياة الإنسان العربي في أسلوب قصصي جميل وتبرز فيها شهامة العربي الصغير عندما يرى أباه في حيرة والمعنى الإسلامي في مجيء لطف الله في اللحظات الاخيرة ليختم بها لوحته الرائعة هذه.

لبيد بن ربيعة

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين، هي عشيرة بني جعفر، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطفيل وأبو براء ومعاوية. أما ربيعة فكان يحرأ فياضاً، ومن ثم لُقِّبَ : "ربيع المفسرين" وقد قتلتته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه. وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور وهو الآخر بفروسيته، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلعب بملاعب الأسنة، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة، فلُقِّبَ بمعوذ الحكماء. وأم لبيد تدمرة بنت زنباع العبسية.

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفاداتها على أمراء الحيرة وبقص الرواة من ذلك حديثاً ينصل- إن صحَّ- بأول ما كان من تيقظ موهبته وهو لا يزال حَدَثًا، فهم يروون أن وفدًا من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر، فوجد هناك وفدًا من بني عَبْس على رأسه الربيع بن زياد، وكان بين العبسيين وبني عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم. ولم يلبث الوفدان أن اصطدما، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان. وعرفوا ذلك، فاستشاط لبيد غضباً، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز مقدع، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين. وسواء أصحَّ هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيداً أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه في الفخر بعشيرته والافتخار بها اعتداداً بالغاً. ويقال أنه كان يكتمه في أول الأمر، حتى إذا نظم معلقته : "عَفَّت الديار محلُّها فمقامها" أخذ يظهره، وأخذ أسمه يطير في القبائل ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه، فوقع الإيمان في قلبه، إلا أنه لم يعلن إسلامه حينئذ. وعاد إلى قبيلته، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول ﷺ، فأعلنوا دخولهم في دين الله. وكان ابن عمه

عامر بن الطفيل وأخوه أريد وفدت على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعضمه الله. ودعا عليهما، فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله، أما أريد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته، وظل ليبد بعد إسلامه يبكيه بكاء حاراً.

ورجع ليبد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن، وما زال بينهم حتى خُطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفاه الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة. ويقول الرواة إنه شغل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظر الشعر إلا قليلاً، ويصورون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة: أن استشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام، فلما سأل ليبداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة: ثم أتاه بها. وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فأمر أن يزيد عطائه خمسمائة وكان ألفين. ويمضي الرواة فيزعمون إنه لم يفي الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه. فمن قائل هو قوله:

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجلى حتى كساني من الإسلام سرّاً

ومن قائل، بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كمنفسه والمرء يضلحه الجليس الصالح

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين: قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً.

وإذا انتقلنا إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلاوة، ومن ثم يقول فيه ابن سلام: "كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق"، ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أريد، فإن ألفاظها ماء ورونقاً وفي معانيها من الإسلام

أصداء وظلالا، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك والصيغة، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله⁽¹⁾:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وثبقى الجبال بعدنا والمصانع⁽²⁾
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا وكل فتى يوماً به الدهر فاجع
وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها، وغدواً بلاقع⁽³⁾
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع⁽⁴⁾
وما البر إلا مضمرات من الثقى وما المال إلا عاريات ودائع

وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامي أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية، فقد تغفل الإسلام في ضميره، فاتجه في أشعاره إلى ربه منيباً إليه، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذي ينتظره، يقول في قصيدة له⁽⁵⁾:

إنما يحفظ الثقى الأبرار وإلى الله يسـتقرُّ القرار
وإلى الله ترجعون وعند الله به وردُّ الأمور والإصدار
كل شيء أحصى كتاباً وعلماً ولديه تجلّت الأسرار

(1) ديوان لبيد بتحقيق احسان عباس ص 168.

(2) المصانع: الأبنية الضخمة.

(3) بلاقع: جمع بلقع وهو الأرض القفر. وغدوا: غدا.

(4) يحور: يصير.

(5) ديوان لبيد ص 41 والحيوان 163/7.

إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أنـ
ظرتُ لو كان ينفع الإنظارُ⁽¹⁾
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأيـ
ام إلا يرمـم وتـمارُ⁽²⁾

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة وقد أحصى كل شيء في كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره، ويمضي في طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً من الموت ويوم الحساب، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفاني، على نحو ما نرى في لاميته التي نؤمن بأنه نظمها في الإسلام، وفيها يقول⁽³⁾:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُويهة تصفرُّ منها الأناملُ⁽⁴⁾

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(١) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾ ويستمد البيت الثاني من مثل قوله جل وعز: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٣) أما البيت الثالث فاستمده مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾^(٤) وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٥﴾. واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر، وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه⁽⁵⁾ وفي الواقع

(1) الإنظار: التأخير.

(2) يرمم وتعار: جبالان في نجد.

(3) الديوان ص 256، والشعر والشعراء 237/1 والطبري 28/5.

(4) يريد بالدويهة الموت.

(5) انظر الديوان ص 254.

كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم، ومن ثم مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرس وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً. وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله⁽¹⁾:

لله نافلة الأجل الأفضل وله العُلا وأثيث كل مؤئل⁽²⁾
لا يستطيع الناسُ محو كتابه أُلّى وليس قضاؤه بمبدل

وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية، وإن كل ما يجري في الكون بقضائه وإن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبین، وإن كلا سيجزى بما سجل عليه كتابه، يقول سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) (وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). ويمضي لبيد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان ونسره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من ريب الزمان، ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته⁽³⁾:

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأيّ أولعاً⁽⁴⁾
يملاً له منه ذنوياً مترعاً وقد أباد إرمأً وثبُعاً⁽⁵⁾

والحق إن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثاراً عميقة، وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما ينسب إليه منها يدل على أن الإسلام تعمق روحه، وأنه استشعر معانيه ومواعظه، فمضى يحيلها أبياتاً

(1) الديوان ص 271.

(2) أثيث: موطناً عظيم. مؤئل: مؤصل، ويوصف به الملك والمجد.

(3) الديوان ص 337.

(4) الإصبع: الأثر الحسن.

(5) ذنوياً مترعاً: دلوأ مملوءاً.

وأشعاراً، بل قصائد دينية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا ان من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها⁽¹⁾:

إن تقوى ربنا خيرُ نفل وبإذن الله ريثي وعجل⁽²⁾
أحمدُ الله فلانْدُلُّهُ بيديه الخيرُ ما شاء فعل
من هداه سُبُلَ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلَّ
فاكذب النفس إذا حدَّثتها إن صدق النفس يُزري بالأمل
غير أن لا تكذبها في الثُّقى واخزها بالبرِّ، لله الأجل⁽³⁾

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له ولعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقداه لأريد ويبكيه، وعلى هذا النحو يظل ليبد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخدعها داعياً إلى ان يكف الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يفتتم بقية أجله بخير عمله⁽⁴⁾.

(1) الشعر والشعراء 238/1، والديوان ص174 وما بعدها.

(2) النفل: العطية . الريث: البطء.

(3) اخزها: سسها واقهرها.

(4) العصر الإسلامي ص92-95.

شعر الفتوحات الإسلامية

وهناك أشياء لابد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم. أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نُسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجوّدين، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند، ومن ثم اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها. ويكثر أن يرسل الراوي الشعر إرسالاً بدون نسبته إلى شاعر بعينه، وينص الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يعرف من نظمهما، ويعقب عليهما بقوله: "وسُمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب"⁽¹⁾، وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب، فناظلمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجدوا بل انه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجّدوا، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل.

ويسود في هذا الشعر الإيجاز، فهو شعر للمحات السريعة والمواقف الخاطفة، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية، انه يعبر عن خاطر التحم بصدوره دون معاناة أو مكابدة، ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يضرب بسيفه، غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره.

(1) الطبري 83/3.

وملاحظة أخيرة، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار، وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة، ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القصاص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم، ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين، وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك، مقصدين له حيناً راجزين أحياناً أخرى، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز، لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب⁽¹⁾.

وإن الموضوعات الجديدة التي عبر عنها شعر الفتح نتيجة طبيعة لحياة الفاتحين في بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم، وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين، ونعني به ذلك الشعر الذي يعبر عن أشواق الشاعر التي كانت تملأ جوانبه، وعن المواجه التي كانت تلذع كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم، كهذا المجاهد الذي يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله في مرو الشاهجان فقال:

أقمرية الوادي التي خان إلفها من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرور الشاهجان غريب⁽²⁾

وكما يسكب الشاعر الغريب عواطفه على الطيور ويشكو إليها همومه يفرغ إلى طبيعة دياره التي خلفها وراءه، عندما يعاني من قسوة أجواء هذه المناطق

(1) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 66-67.

(2) ياقوت ج 2 ص 510.

النائية وبردها وثلجها، فيتحسر على دفء موطنه، كهذا الشاعر الذي راح يذم جو مرو، ويتمنى جو العراق في بره وبحره، إذ يقول:

وأرى بمرّو الشاهجان تتكرت أرض تتابع ثلجها المذور
أسفي على بر العراق وبحره إن الفؤاد بشجوه معذور⁽¹⁾

وإن كان هذا الشاعر يذم برد مرو شوقاً إلى دفء العراق، فإن شاعراً آخر من الفاتحين يضيق بقيظ بعض المناطق البعيدة الأخرى عن وطنه، ويتسم برد رياح نجد، وطيب مناخه، ضائقاً بغريته بين أناس ليسوا من قومه ولا من عشيرته ولا من لسانه، فيقول:

أبكي على نجد ورّيا ولن ترى بعينيك رّيا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفاً ما عشت أقفار وجرة ولا واطئاً من تربهن ثرى جمدا
ولا واجداً رّيح الخزامى تسوقها رياح الصبا تملو دكادك أو وهدا
تبدلت من رّيا وجارات بيتها قرى نبطيات يسميني مردا
ألا أيها البرق الذي بات يرتقى ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا
ألم تر أن الليل يقصر طولُه بنجد وتزداد الرياح به بردا⁽²⁾

وأخذ الشعور بالغربة على الفاتحين يتصور صوراً مختلفة، فنجد يقصر الليل فيه وتزداد رياحه برداً، ولكنه في غريته يزداد طولاً وقيضاً.

(1) المصدر نفسه.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4 ص 906.

وهذا ورد بن الورد في رامهرمز يحن إلى حبيبته ودياره في بني كعب،
فيصور فؤاده مصعداً مع المصعدين إلى أرض الوطن، ولا يجد خيراً في الدنيا إذا
لم يزر فيها حبيبته فيقول:

أُفترياً أصبحت في رامهرمز ألا كل كمبي هناك غريب
إذا راح ركب مصعدون فقلبه مع المصعدين الرائحين جنيب
وإن القليب الفرد من أيمن الحمى إليّ وإن لم آتِه لحبيب
ولا خير في الدنيا إذا لم تزر بها حبيباً ولم يطرب إليك حبيب⁽¹⁾

وراح بعض الشعراء ييكون حظهم الذي ألقى بهم إلى هذه المناطق النائية،
حتى ليضيقون بالقتال والحرب فيها، ويصرحون بهذا في شعرهم، كما فعل هذا
الجندي الذي يقول:

تبدلت من نجد وممن يحله محله جند ما الأعاريب والجند
وأصبحت في أرض الجنود وقد أرى زماني بأرض لا يقال لها بند⁽²⁾

ويستبد الحنين بالشاعر فينظر ناحية نجد، برغم أنه لا يرى شيئاً، ولكنه
ينظر حنيناً إليها وإلى خيامها التي يقصر عنها الطرف وبرغم ألا نفع في نظره فلا
يزال ينظر، ثم تجري عبراته هكذا كل يوم، وهكذا لا يستريح قلبه، فإما
مجاهد في غزاة، أو ناء يتذكر يقول:

أكرر طريفي نحو نجد وإلني برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها إذا أمطرت عود ومسك وعنبر

(1) المصدر نفسه، ج 2 ص 738.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4 ص 749.

بلاد كأن الأقحوان بروضه ونور الأقاحي وشى برد مجير
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري من نحو نجد بنافع أجل لا، ولكني إلى ذاك أنظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة لعينك مجرى مائها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاوز بحري وإما نازح يتذكر⁽¹⁾

وفي مثل هذه الظروف القاسية الموحشة يجد الشاعر المجاهد الغريب نفسه بحاجة إلى أن يهرب إلى الطبيعة يبتها آلامه وأحزانه، ولا يزال الشعر الذي قيل في نخلة القادسية يصور لنا عاطفة الإنسان المأزوم نحو الطبيعة ولجوءه إليها، وبخاصة لو استشعر إلى جانب مشاعر الاغتراب والوحشية قلقاً يتهدد حياته، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجله.

كان ذلك يوم عمّاس، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة، وكان عدد الجرحى كبيراً، وأخذ المسلمون في دفن القتلى بمشرق، ودفنوا بالجرحى إلى عناية النساء، وكان من بيت موقع المعركة مما يلي القادسية وبين حصن العذيب نخلة وحيدة، ليس حولها شيء من الزرع، وكان المسلمون إذا حملوا الجريح مروا به عليها، فإذا كان فيه تميز نظر إليها طويلاً، ثم قال لحامله: أرحني تحت ظل هذه النخلة ن فيرتاح تحتها برهة، يترنم فيها ببيت من الشعر يتمنى فيه السلامة لها، وكأنه يخاطب نفسه فيها، إذ لم يجد أهله وأحباء حوله يقولون له هذه الكلمة فيخففون بها بعض ما به من ألم.

ويذكر وحدة النخلة، وكأنه يعبر بذلك عن غربته، مثل هذه النخلة التي لا يجاورها نخل فيقول:

(1) المصدر نفسه، ج 4 ص 747.

ألا فاسلمي يا نخلة بين قادس وبين العذيب لا يجاورك النخل

فإذا بجريح آخر يقول:

ألا يا اسلمي يا نخلة بين جرعة يجاورك الجمّان دونك والرجل

فإذا بثالث من تيم الله يدعى ربيعاً يقول:

أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العدا سقتك الغوادي والغيوث الهواطل

وحمل إليها الأعور بن قطبة جريحاً - فيمن حمل - فقال:

أيا نخلة الركبان لازالت فانظري ولا زال في أكناف جرعاتك النخل

فيرد عوف بن مالك التميمي:

أيا نخلة دون العذيب بتعلة سقيت الغوادي المدجنات من النخل⁽¹⁾

وموضوع الحنين على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامي، ذلك انه يلتف في نطاق وجداني رفيق، تتسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية في تدفق وحرارة وصدق⁽²⁾.

(1) المسعودي، مروج الذهب ج2 ص 209، الطبري ج5 ص 2217-2218.

(2) النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية، ص254.

الخطابة

من مميزات العرب أنهم أهل لسن وفصاحة، وأنهم أحرار بلغوا الغاية من حب الحرية وطلبها، وحيث تتوافر هاتان الصفتان، وتكون مع توافرها الدعاية إلى الكلام، يرقى شأن الخطابة، وتعلو أقدار الخطباء، ولقد علمت من شأن الخطابة في العصر الجاهلي ما علمت، لما توافر فيه من دواعيها ووسائلها، وقد كان من شأنها فيه أن القبيلة كانت تزهى بخطبائها كما تزهى بشعرائها، لأنهم دعاماتها في المنافرات والمفاخرات، وألسنتها في حاجاتها حين تصد على أمثالها في شؤون الحرب والسلام وللتقاضي ونحو ذلك من شؤون دنياها.

ولما ظهر الإسلام بالدعوة العظمى في العرب ساعد ظهوره على نمر الخطابة في هذا الطور من حياتهم، وبلغت أعلى مكانة قدرت لها إن اتخذها أدواته في الدعوة ووسيلته إلى التأثير والإقناع، وخطيب العرب قاطبة، إذ ذاك هو رسول الله ﷺ وقد خطب قريشاً بمكة كثيراً يدعوها إلى الإسلام. ولما هاجر إلى المدينة استمر يخطب الناس وقد اتسعت خطابته حينئذ بحكم انصرافه إلى مقاتلة المشركين من جهة، وإلى تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وإقامة الصلة بينها، وبين أولي الأمر شأني الدين والدنيا من جهة أخرى، فخطب محرضاً على القتال دفاعاً عن النفس وخطب ناصحاً ومعلماً ومرشداً، وشرع الخطابة في كل جمعة وعيد وموسم حج بعرفة، وجعلها شعار كل امام وركناً من أركان العبادة في الأيام المذكورة لتكون الوسيلة إلى إفاضة السكينة على نفوس المؤمنين وتثبيت العلاقة بين المجتمع وأصحاب السلطان وأهل الرأي من قادة المسلمين وأئمة دينهم وبذلك فتح للخطابة آفاقاً واسعة في المطالب الروحية والخلقية والاجتماعية والتشريعية والسياسية وغيرها، فضربت منها في كل سبيل كلما جدت للأمة مصلحة، وكلما نشأت عن هذه المصلحة حاجة الراعي والرعية إلى تحديث بعضها لبعض على النحو من سنة التشاور التي سنّها الدين لجماعة المسلمين، فأنتج ذلك

ازدهارها بضروب من الموضوعات الخطيرة التي ينبعث الاحتياج إليها من صميم شؤون الحياة.

وقد كان النبي ﷺ وهو أفصح عربي على الإطلاق، المثل الأعلى لسطوة البيان وقوة الحجة، فطال العرب - في خطبة وجوامع كلمه - بما لا عهد لهم بمثله من أفانين المعاني وروائع الأغراض والأساليب . وقد كان يفتن في خطبه افتناناً يملك به مجامع القلوب ليناً وشدة، وعداً ووعداً، نصيحة وتثقيفاً في كلام حلو خلاب، وأداء بارع جذاب تنبهر بهما الأسماع، وتثقيد الأبصار حتى ليفتني فيه السامعون وتتقاد أهواؤهم لا رادته طيبة راضية مؤمنة، كالذي رأيته من موقف الأنصار منه حين خطبهم تلك الخطبة الرائعة، وقد كانوا عليه عاتبين واجدين، فانقلبوا في مثل لمح الطرف باكين نادمين، وبذلك طبع الخطابة بطابع جديد خطير الشأن لا تعد الخطابة بدونه في البلاغات فأسرع الخطباء إلى تأثره واقتباس شعاعه وتمثل أسلوبه وأدائه، وساعدتهم مواهبهم على حسن التمثيل والإتباع واحتاجوا إلى القول فأجادوا وبرعوا وكان من ذلك كله ما امتاز به حظ الخطابة العربية في هذا العصر: من الجودة والرصانة، وسمو الأغراض وقوة التأثير.

لقد ازدهرت الخطابة إزدهاراً ملموساً وذلك بعدما اختطبت لنفسها طريقة جديدةً أزلت الخطابة القبلية المتعصبة وابتعدت عن استخدام السجع وظهرت الخطابة الدينية والسياسية والحريية وازدهرت الخطب المحفلية وخطب الوفود المهنئة أو المعزية وبعد وفاة النبي محمد ﷺ اختلف الناس في شؤون الخلافة فكثرت الخطابة السياسية لكثرة الأحزاب والفرق، كما كثرت الوصايا.

إن الخطابة في هذا العصر استمدت مميزاتها من اتصال معانيها باغراضها والاقتراس من القرآن الكريم والافتتاح بحمد الله تعالى وتضمنها الشعر والمثل والحكمة.

واتجهت الخطابة الإسلامية نحو الهدوء واللين فهي تحترم القوم المخاطبين وتعتمد على المشاركة الحرة لأنهم متساوون في الحقوق ومن هنا ندرك ليونة عمر الخطيب عن قساوة عمر الخليفة.

اتسمت الخطابة بالعفوية والايضاح ووحدت الموضوع وترابط الاجزاء والصياغة والنسج والايجاز لأداء الفكرة المطلوبة ولكن رغم ذلك بقيت الخطابة الإسلامية محتفظة ببعض خصائص الجاهليين من وقوف على مرتفع وحمل العصا باليمين والسيف باليسار وبالمحافظة على طرق اللباس وكان من أهم مقومات الأسلوب الخطابي: السهولة والوضوح والتلوين الكلامي والتوازن الموسيقي.

وقد ازدهرت الخطابة بفعل عدة عوامل هي: كانت الخطابة هي الوسيلة الوحيدة للدعوة إلى الدين الجديد بسبب تفشي الأمية وشيوعها بين العرب، وإن الإسلام عندما جاء أعلى من شأن العقل وأتجه إلى الاقناع بالمنطق والحجة وهي عدة الخطيب كما أرتبطت الخطابة بالدين أرتباطاً وتبعاً فهي وسيلة لنشر التشريع وتحديد نظم الحياة في المجتمع الجديد أصبحت الخطابة تخلق جسوراً من الصلابة بين النبي محمد ﷺ والرعية والخفاء الراشدين والرعية يضاف إلى ذلك كله أن العرب هم أهل فصاحة ولسان.

أغراضها

وأغراض الخطابة في هذا العصر عزيزة المذهب، شريفة المقاصد، بعيدة المرامي حفلت بموضوعات متنوعة، وجالت في كل ما اقتضاه الإسلام من الحاجات لنشر دعوته وتثبيت قواعده وإذاعة محاسنه، والإسلام دين ونظام جامع يؤلف بين حاجات الروح وحاجت الجسم، ويقيم الصلة بين شؤون المعاش وشؤون المعاد، ويعنى بقضايا الفكر والعقيدة والأخلاق فدارت خطب هذا العصر حول هذا القطب: قطب الإسلام، خاصة في عهد النبوة، ثم سايّرت الأحداث الجديدة ووفت بمطالبها في قوة وروعة وسمو شأن.

وكان من أهم أغراضها:

- 1- الدعوة إلى توحيد الله، نبذ الشرك وعبادة الأصنام، وإبطال الوساطة بين الله وعباده.
- 2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترغيب في ثواب الله، والترهيب من عقابه، والوعظ والإرشاد والنصيحة بإتباع هدى الشارع الضامن للسعادة الكاملة والكرامة الموفورة.
- 3- تقرير شرائع الإسلام وقواعد الأحكام، ومعالجة ما يعرض من النوازل والمشكلات الزمنية التي تتصل بحياة الجماعة وتتطلب الشرح والإيضاح.
- 4- تحميس المؤمنين على الجهاد، وتوصية الجيوش بما ينبغي أن يعاملوا به المشركين، وما يحسن أن يتحلوا به من الصبر على القتال بإحدى الحسنيين أما الاستشهاد في سبيل الحق، وأما النصر على الكفار وإعلان الانتصارات وتهنئة المسلمين بالظفر بالأعداء.
- 5- معالجة القضايا السياسية وما تستتبع من تدبير لخطوة، وتأيد لبيعة، واثبات حق في سلطان، ورد لشبهة على تصرف أو حكم، أو احتجاج ومناظرة، أو إعلان نذير أو إعطاء أمان، ونحو ذلك من الشؤون الكبار.

أسلوبها

ويمتاز أسلوب الخاطبة في العصر الإسلامي بما يأتي :

- 1- التنويع بين الإيجاز والإسهاب مراعاة للمواقف ومقتضيات الأحوال. وقد كانت خطب رسول الله ﷺ، تقصر في خطب الجمعة، ويقصد فيها إلى الكلمات الجوامع، وورد أنه كان يأمر بقصرها، أما في المواسم الكبار، فكانت خطبه تطول أن رأى وجهاً للإطالة ولم يكن منه بدٌ، وقد روى أنه خطب يوماً بعد صلاة العصر فلم يزل يخطب حتى لم يبق

من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف، قال الجاحظ: "ولم يطل التماساً للطول، ولا رغبة في القدرة على الطول، ولكن المعاني إذا كثرت، والوجوه إذا اقتتت، كثر عدد اللفظ وإن حذفت فضوله بغاية الحذق... والذين يعث فيهم أكثر ما يعتمدون عليه البيان واللين".

وكان خطباء هذا العصر يأتون به، ولا يفوتهم أن يزنوا المواقف وما تتطلبه من إطالة أو تقصير.

2- قوة العبارة، وسهولة الخط، ووفرة اللفظ من الروعة وجمال الإيقاع البياني. والظاهر أنهم، مع ما أوتوا من القدرة البيانية، كانوا يعدون خطبهم أعداداً، ويعنون بتعبير كلامهم عناية خاصة، ومما يدل على ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال يوم السقيفة: "كنت زوّيت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم" ومعنى زوّيت جمعت وأعددت.

3- خلوها من السجع. والثابت أن النبي ﷺ كان ينفّر من السجع المتكلف، ويقول في إنكاره: "أسجع كسجع الكهّان؟"، وكان الكهان في الجاهلية يصوغون جملاً قصاراً مبهمات يريدون بها الاغراب والتلفيق أخفاء لوجه الحق الذي يسألون عنه ويجهلونه ولا يدرون كيف يجيبون عنه، فيعمدون إلى هذا السجع الملفق المتكلف الغامض.

4- استهالها غالباً بحمد الله والشاء عليه والتشهد. وقد سنّ رسول الله ﷺ، ذلك في خطبه، فكان يحمد الله ويشني عليه، ثم يقول بعد ذلك: "أماً بعد".

5- ترصيعها بأي القرآن وضرب الأمثال تمكيناً للحجج، وهو شيء يكثر في خطب الخلفاء الراشدين⁽¹⁾.

(1) الأساس في تاريخ الأدب العربي ص 199.

خطبة الرسول محمد ﷺ في حجة الوداع

((أيها الناس: أن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلا هل بلغت؟ اللهم أشهد!! فمن كانت عنده أمانة فليؤد إلى من ائتمنه عليها... وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: ان لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس: أنما المؤمنون أخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، إلا هل بلغت؟ الله أشهد!! فلا ترجعن بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله وسنتي...)).

معاني المفردات :

يومكم هذا: يوم عرفة، شهركم هذا: شهر ذي الحجة، بلدكم هذا: مكة المكرمة، مآثر الجاهلية: جمع مآثره وهي ما يتفاخر به الجاهليون، موضوعة: متروكة، السدانة: خدمة البيت الحرام، السقاية: سقاية الحجيج، القود: القصاص، فيه مائة بعير: دية القتل الخطأ، طيب النفس: رضا النفس، كتاب الله: القرآن الكريم، سنتي: السنة المحمدية.

الشرح والتحليل

كان رسول الله ﷺ أصفى العرب أسلوباً وأعظمهم تأثيراً في نفوس مستمعيه ولا غرو فقد ادبه ربه فاحسن تأديبه وأعطاه جوامع الكليم وعلمه البيان فكان أفصح الفصحاء وتضمنت الخطبة القوانين الآتية:

- (1) تحريم دماء الآخرين وأموالهم.
- (2) أداء الأمانة إلى أصحابها.
- (3) حقوق المرأة والاستيلاء بها.
- (4) الأخوة وما تقتضيه من المحافظة على أموال المسلم وعدم مساسها إلا برضاء.
- (5) النهي والتحذير عن الابتعاد عن الإيمان والفرقة التي توجب الاقتتال .
- (6) القرآن الكريم هو شريعة المجتمع.

إن النداء في أول الخطبة هو للناس جميعاً وليس خاصاً بالمسلمين وحدهم لأن الأمر يتعلق بالناس كلهم، وأن التشبيه في قوله (إن دماءكم... يومكم هذا) لتوضيح حرمة دماء الآخرين، وأن الاستفهام في (هل بلغت) يفيد التقرير وجاء تالياً لـ (الأم التي تقيد تنبيه المخاطب إلى أهمية ما يأتي بعدها) وأن الأمر في (فليؤدها) للإلزام والتنفيد، وأما قوله (كتاب الله وسنتي) هو تفصيل بعد إجمال وقد تنوعت الأساليب بين الخبر والإنشاء، وجاءت بعض الأساليب الأدبية مؤكدة مثل قوله (إن دماءكم وأموالكم) و(إن مآثر الجاهلية موضوعة) و(إن لنسائكم عليكم حقاً) وكلها تقوى المعنى وتنزع الشك كما ورد في الخطبة أسلوب القصر في قوله (إنما المؤمنون أخوة) وقد استأثرت خطبة الرسول محمد ﷺ بوحدة الموضوع وقصر الفقرات واشتمالها على عنصري الاستحالة والإقناع، كما برز تعدد توكيد الإيمان وعدم الرجوع إلى الشرك بعد وفاته ﷺ.

علي بن أبي طالب عليه السلام

حياته:

علي بن أبي طالب ولد في مكة سنة 600م، ونشأ في حجر محمد ﷺ لا يفارقه ويشهد الغزوات كلها الا غزوة تبوك. وكان شديد البلاء في الحروب حتى لقب بسيف الإسلام.

تزوج فاطمة بنت محمد فولدت له الحسن والحسين. ولما توفي محمد ﷺ ولي الخلافة أبو بكر، ثم عمر ثم عفان، فكان عليّ للجميع ظهيراً ومعيناً ومشيراً. وفي سنة 656م/35هـ بويع عليّ بالخلافة، فأخذ معاوية بن أبي سفيان يؤلب بني أمية عليه، وانضمت اليهم عائشة وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وذهبوا إلى البصرة يبعثون فيها الفتنة، فلم ير عليّ بدا من السير اليهم، بسبعة آلاف مقاتل، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالاً شديداً كان النصر فيه لعليّ، وسميت لك الحرب (واقعة الجمل) لأن عائشة كانت على جمل تحرض الأبطال على عليّ وجيشه.

ثم سار علي لمحاربة معاوية في صفين وكاد يتغلب فعمد الأمير الأموي إلى الحيلة، وأمر برفع المصاحف على الرماح، فكف المنتصرون عن القتال وكان يسقط لعلي بحيلة عدوه، وختم التحكيم المأساة، فأسقط فيه ابن أبي طالب ولم يسقط معاوية، فعاد علي إلى الكوفة يستعد لحرب عدوه، فقتله عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم وهو في مسجد الكوفة، وذلك سنة 661م/40هـ.

آثاره:

ينسب إلى علي ديوان شعر في الزهد والحكم، والأشعر انه منحول بجملته وينسب إليه في النثر اثنا عشر مؤلفاً، في الحكم والوعظ، أهمها وأشهرها (نهج البلاغة).

1- مضمون نهج البلاغة: هو كتاب جليل جمع فيه الشريف الرضي (1015م / 406هـ) كل ما ينسب إلى الإمام علي من خطب وأوامر، وكتب ورسائل وحكم ومواعظ، وشرحه كثيرون من الناس منهم ابن الحديد (1190-1257م / 586-655هـ) والشيخ محمد عبده . وطبع مراراً في بيروت ومصر والهند والعجم.

2- صحة نسبته إلى علي: يذهب بعض النقاد إلى أن (نهج البلاغة) من وضع الشريف الرضي لا من وضع علي، وهم يعتمدون في ذلك على البراهين التالية:

1- في الكتاب من التعريض بالصحابة ما لا يمكن صدوره عن مثل الإمام علي.

2- في الكتاب من الأفكار العميقة، والأحكام في الفكرة، واستعمال الألفاظ الفلسفية الاصطلاحية كالأين والكيف، ونحوهما واستعمال الطريقة العددية في شرح المسائل وفي تقسيمات الفضائل أو الرذائل، والدقة في الوصف، واستفراغ صفات الموصوف- كما مر الكلام على الطاووس والنملة وغيرهما- ما لم يوجد في عصر عليّ، ولم يعرف عند العرب إلا بعد ترجمة كتب اليونان والفرس الأدبية والحكمية.

3- في الكتاب من السجع والتتميق اللفظي وآثار الصنعة ما لم يعهده عصر عليّ، وإنما ذلك طرأ على أساليب الكتابة في أواخر العهد الأموي وفي العهد العباسي.

4- في عبارات الكتاب ما يلمس منه ادعاء علم الغيب، وهذا أمر بعيد عن رزانة علي وعن أخلاقه الرفيعة.

تلك براهين أصحاب هذا الرأي وهي تصطدم ببراهين من يثبتون أن الكتاب بمجمله لعليّ، معتمدين على قوة تفكير الرجل ونبوغه الفطري ومنزلته

الدينية والاجتماعية الرفيعة، مبينين أن ما يعد غريباً ليس سوى ثمرة العقل المفكر، وأن السجع والتنميق في الكتاب عن طبع لا عن صنعة، وأن ما يرى ادّعاء لعلم الغيب ليس سوى استنتاج القضايا الاجتماعية عن مقدماتها وأسبابها. ومما ريب فيه أن الكتاب لا يخلو من المنحل المدخول الذي لا تصح نسبته إلى الإمام، ولكن تفصيل ذلك مما لا طائل تحته في دراستنا الأدبية هذه.

3- شخصية علي في نهج البلاغة: يبدو علي في نهج البلاغة ذا شخصية فذة فهو رجل العقيدة القوية والإيمان الحي، الذي تقوده العقيدة إلى القيام بجميع شعائر الدين، وإلى حمل الآخرين على إتباعه في هذا السبيل، وهو لا يعرف في ذلك هوادة، ولا يقيم فيه حداً، ومن ثم نلمس في نصائحه وحكمه قسوة وصلابة.

وتقوده عقيدته الحية أيضاً إلى الاستقامة التي لا تعرف التواء ولا عوجاً بل تمضي في سبيل العدل والواجب، غير مراعاة للخواطر ولا محاباة للوجوه، فلا يحجم عن الشدة والقسوة في الدفاع عن الحقوق سواء أفرديّة كانت أم اجتماعية، وهذه الاستقامة الصلبة التي لا تتبع طرق السياسات الإنسانية ولا تلين في حال من الأحوال، وقفت دون شعبيته بعض الوقوف، ودون النجاح الكامل في تدابير الإدارية فكان ضحية استقامته.

وكان إلى ذلك طموحاً في الحق الأدبي والأخلاقي يريد أن يكون مثلاً عالياً في الأخلاق والنزاهة والتجرد.

وكان شجاعاً جريئاً في الدفاع عن آرائه والعمل بما تمليه الاستقامة، وفي الحرب وحموة القتال، لا يخشى موتاً، ولا يرهب عدواً، إلا أن شجاعته لم تحجر قلبه، فكان رقيق القلب عميقها تظهر تلك الرقة في مواقف كثيرة ولاسيما عند دفن فاطمة زوجته إذ ظهر أن "حزنه سرمدٌ وليله مسهد".

4- قيمة نهج البلاغة: إن في الكلام علي بن أبي طالب ثروة معنوية تفرد له مكاناً خاصاً في أدب ذلك العهد، وثروة مبنوية تجعل في كلامه متعة

أدبية وجمالاً فنياً . ولكي نقف على بعض هذه الثروة نستعرض أنواع كلامه - الحكم، الرسائل، والمواعظ - مبينين قيمتها المعنوية وقيمتها الفنية:

1-الحكم: إمّا الحكم فهي عبارات موجزة تمتاز بفكرة قويّة هي ثمرة التفكير أو الاختبار، تخرج مقتضية رشيقة المبنى، تعلق في الأذهان بسهولة لأنها ترد في صورة قوية كما في قوله: " إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى"⁽¹⁾ أو ترد في مظهر من مظاهر الطباق كما في قوله: " أشرف الغني ترك المنى" أو في تركيب غامض من براعة الموازنة: " مَنْ حذّرَكَ كمن بشرك"، أو من حسن استعمال أحرف الجر: " الصبر صبران، صبر على ما تكره، وصبر عما تحب" أو من حسن تتابع الجمل والتشبيهات: " لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالمشاورة ..".

2-الرسائل: تمتاز رسائل علي بإيجازها، فأكثرها لا يتجاوز العشر أسطراً، أما معانيها فهي صادرة عن رجل سياسة وإدارة، تصطبغ بتلك الصبغة نفسها، وترمي إلى التحريض والتّصح والاحتجاج . والكلام طبيعي لا يخلو من التتميق البديعي، وينزع نزعة الإيجاز والجزالة، فلا أطناب ولا اضطراب ولا إسفاف: " أعلموا أنّ مقدّمة القوم عيونهم، وعيون المقدّمة طلائعهم"⁽²⁾، وإياكم والتفرّق، فإذا نزلتم فأنزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم

(1) أي يطلبك الموت من خلفك وانت تقرب عليه المسافة بإدبارك نحوه : وهذا حث على الإقدام لأن في الفرار الهلكة.

(2) الطلائع ج طليعة وهي مقدمة الجيش، من يبعث قدّامه ليطلع أحوال العدو .

فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرِّمَّاحَ كِفَّةً⁽¹⁾،
ولا تذوقوا النوم إلا غراراً⁽²⁾ أو مضمضةً⁽³⁾.

3- الخطب والمواعظ: هي أصدق صورة لنفس الإمام علي، أودعها
أعطر ما في قلبه من التقوى الحقيقية المرتكزة على إيمان وثيق
باللَّه، وإعجاب بمخلوقاته وكمالاته، وزهد بالخيرات الزائلة،
وإيمان الإمام ناطق في كل موعظة من مواعظه، فهي معطرة
بذكر الله، تتساعد منها صلوات حارة جميلة كأجمل ما قيل
في حديث الإنسان إلى ربه: "اللهم أغفر لي ما أنت أعلم به منِّي
. فإن عُدت فعد عليّ بالمغفرة الهمَّ أغفر لي رمزات⁽⁴⁾ اللاحاظ
وسقطات الالفاظ وشهوات الجنان وهفوات اللسان".

وكثيراً ما يطير قلب الإمام إلى التأمل بعجائب الله ومدح كمالاته
وأعماله؛ فيخط تلك المقطوعات الشعرية في وصف النملة والطاووس والخفاش
التي هي من روائع الفن الوصفي الدقيق، ويخط تلك الحمدلات النابضة بشكر
صحيح: "هو الأوَّل لم يزل والباقي بلا أجل، خرَّت له الجباه ووحدته الشفاء ... لا
يخفى عليه من عباده شخوص⁽⁵⁾ لحظة، ولا كرور لفظة ... " وينتقل الإمام من
عواطف الإعجاب بمخلوقات الله وكمالاته إلى عاطفة الزُّهد في الدُّنيا. ثم ينزل
إلى ميدان الحياة فيعمل على مناصرة الحق ليظهر على الباطل في السياسة
والاجتماع.

(1) الكِفَّة: مثل كَفَّة الميزان، فانصبوها مستديرة حولكم، محيطه بكم كأنها كفة الميزان.

(2) الغرار: النوم الخفيف.

(3) المضمضة: ان ينام ثم يستيقظ ثم ينام ...

(4) رمزات: اللاحاظ: الإشارات والإيماءات.

(5) الشخوص: الارتفاع.

عبقريّة الإمام:

تتجلى لنا في كتاب (نهج البلاغة) عبقرية الإمام علي بكل وضوح. وهي قائمة على عقل ذكيّ، واسع الإدراك عميق لا تفوته دقائق الأمور فيسبر الأغوار، ويرسل الأفكار مُنحَلَّةً، ثابتة، بعيدة عن الاضطراب والضعف، كثيرة تتدفق في كل لفظة وكل جملة، متسلسلة تترابط وتتساقط على غير ما عهدناه في النثر القديم.

وعبقرية الإمام قائمة أيضاً على خيال واسع الآفاق، دقيق التصوّر، واضح المعالم، يتخذ صوره من الواقع، ويخلق منها مشاهد واقعية رائعة، ولوحات فنيّة كثيرة الجمال، ويمتزج ذلك الخيال بشعور حيّ دافق، يبعث في المشاهد والصور حياة ونبضاً فتتطلق بليغة وتؤثّر أشدّ التأثير.

أضف إلى ذلك كلّ ملكة الكلام ومعرفة بديهيّة بوسائل التعبير وأساليب الفنّ مما جعل نثر عليّ خزانةً جمعت بين الطبع والصنعة جمعاً شديداً حتى لا تكاد لا تتميّر الصنعة عن الطبع الحسن لحسن تمازجهما وتآلفهما، ولحسن تأثر هذا بتلك. فمقدرة الرجل غنيّة بوسائل الإبلاغ التي يعتمد إليها عن غير إجهاد عقل، ويقصد إليها قصداً للتقرير، فتأتي التشبيهات والصور والأمثال والاستعارات وضروب الموازنة والمرادفة والتوقيع والتشجيع. كأنها من وحي الخاطر والطبع، ومن مقتضيات المعنى الذي يخلج في الصدر ونبعته عقيدة قويّة. كل ذلك في لغة جاهلية صقلها وليّتها العهد الجيد والحضارة الجديدة، وتساعدت من أجزائها وتآلف تلك الأجزاء، موسيقى عذبة تجعل من النثر شعراً له أوزان خاصة، وأنغام تشدّ أو تلين على ما تقتضيه الحال.

فلا عجب بعد ذلك كلّ إذا كان كتاب (نهج البلاغة) ثروة فكريّة وأدبية واسعة. ففيه الدعوة الملحة إلى العمل بشعائر الدين وإلى إتباع تعاليم القرآن وتعزيز كل ما هو شرف الغاية، والحث على السير في سبيل الفضائل. وهو يجمع الدين إلى الاجتماع والسياسة، ويجعل الدين أساساً لهما، فهو يريد مجتمعاً يجري

على سنن العدل والمساواة والحرية. وللعادل محلٌ واسع في الكتاب يجعله الإمام من مقتضيات الحياة الجوهريّة . وحفاظاً عليه يطلب أن يكون الحكام والقضاة ذوي استقامة لا يشترّون بمال ولا يخافون العزل من وظيفتهم، فيحرّص على حسن اختيارهم، ويجعل لهم راتباً يكفيهم مؤونة السُرقة والرغبة في الرشوة. ويحرص على أن يجمع الحاكم بين الشدة واللين وإن يخدم شعبه خدمة الإخلاص والتفاني.

أمّا الشعب كله فيريده الإمام موحد الكلمة، مجتمع الرأي، لا تمزقه التفرقة ولا تلعب به الأهواء، وأمّا الجنود فيرى فيهم الإمام حصناً حصيناً للشعب، وزينة للحكّام، ودعاة للسلام، والأمن لا يقومان بدونهم. فعلى الحاكم أن يستميلهم لتكون لهم فيه الثقة الكاملة والمحبة الخالصة، وأحسن وسيلة لذلك الحفاظ على حقوقهم.

وفي الكتاب إلى جنب هذه التعاليم آراء شتى في الفلسفة الماورائية والفقه، ومعلومات تاريخية جمّة، مما يجعل له محلاً رفيعاً في عالم الأدب والدين والاجتماع⁽¹⁾.

(1) تاريخ الأدب العربي- حسن القاخوي، ص 320.

خطبة الإمام علي عليه السلام في أصحابه بالكوفة

حين انتهى الإمام علي من حرب الخوارج بالنهروان، وعاد إلى الكوفة ظل يدعو أصحابه إلى الخروج لقتال أهل الشام أتباع معاوية الذين ظلوا يغيرون على النواحي التابعة له، يروعون أهلها ويغنمون ما فيها، وكان منها ما رواه الجاحظ من أن سفيان بن عوف الأزدي ثم الغامدي أغار على الأنبار وقتل عامل علي عليها ابن حسان أو حسان البكري، وأزال الخيل عن مسالحها، فبلغ الخبر الإمام علياً فوقف خطيباً على الناس، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال داعياً قومه إلى الجهاد⁽¹⁾:

"أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء، وألزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف، ألا وإنني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سراً وعلناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقردارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهيراً حتى شنت عليكم الغارات. هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حساناً - أو ابن حسان - البكري وأزال خيلكم عن مسالحها⁽²⁾، وقتل منكم رجالاً صالحين، وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع أحجالها وقلبها ورُعْثها⁽³⁾، ثم انصرفوا ما كلم رجل منهم كلاماً⁽⁴⁾، فلو أن أمراً مسلماً

(1) ينظر الخطبة في البيان والتبيين ج2 ص 238.

(2) المسالحي: جمع مسلحة وهي موضع السلاح أو المرقبة وقد تطلق على الجماعة أو القوم ذوو السلاح، والمسلحة أيضاً المركز المتقدم للجنود.

(3) أحجال جمع حجل وهو الخلخال الذي تلبسه المرأة في قدميها والقلب سوار المرأة، والرعث جمع رعاث والرعات جمع رعة وهي القرط الذي تعلقه المرأة في أذنيها.

(4) ما كلم كلاماً: ما جرح جرحاً.

مات من بعدها أسفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان عندي به جديراً، فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم وفشلهم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمي وفيئاً ينهب⁽¹⁾ يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تُغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في الحر قلتم حمارة القيظ⁽²⁾، أمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم أمهلنا حتى ينسلخ عنا القر، كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال⁽³⁾، وعقول ربات الحجال⁽⁴⁾، وددت أن الله أخرجني من بين ظهرائكم وقبضني إلى رحمته من بينكم، ووالله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم . معرفة والله جرت ندماً، وورثت صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاساً، وأفسدتم عني رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب ! لله أبوهم ! وهل منهم أحد أشد لها مراساً وأطول لها تجربة مني ؟ لقد مارسها وما بلغت العشرين، وقد نيفت فيها الستين، ولكنه لا رأي لمن لا يطاع" .

والخطبة - كما نرى - اشتملت على عدة أفكار يبدؤها الإمام علي بالحديث عن الجهاد في سبيل الله وقيمه لمن يرغب فيه ويؤدي حقه وأثره فيمن يرغب عنه ويتقاعس عن حقه، فقيمه الجنة وأثره الخزي والذلة والبلاء والصغار، ثم وضع لهم كيف انه ظل يدعوهم إلى حرب أعدائهم، وكيف أنهم يتواكلون ويتخاذلون عن إجابة دعوته والانصياع لأمرته، ثم روى لهم ما نما إليه من خبر سفيان بن عوف الغامدي، وإغاراته على الأنبار وقتله الرجال وغنمه الأموال حتى النساء المسلمات والكتائب لم يسلمن من شره وأذاه، وهو يعجب

(1) الترح وجمعه أتراح الحزن والهم.

(2) الحمارة شدة الحر.

(3) أحلام جمع الحلم وهو العقل.

(4) ربات الحجال النساء.

كيف أن هؤلاء جادون في باطلهم وكيف أن مخاطبيه متقاعسون في حقهم ثم صور لهم الحال المزرية التي صاروا إليها في شأن الجهاد، فقد صاروا غرضاً يصيبه الأعداء وغنيمة ينتهبها المغيرون، يفار عليهم في حماهم، ويُغزون في ديارهم، ويعصى الله تحت سمعهم وبصرهم، وهم بهذا كله قانعون راضون، لا يغزون ولا يغيرون. إذا دعاهم إلى الحرب والجهاد تعللوا بالمناخ وأحواله شتاءً وصيفاً وهم إنما يفرون من السيف لا من المناخ وحره وبرده.

ويبدو أن الإمام علياً كان قد بلغ أمرهم به مبلغاً كبيراً في نفسه، ولذا نراه يعمد إلى وصفهم بالصغار والضعف وقلة العقل، كما يعمد إلى تمنيه أن يخرجهم الله من بينهم أو ألا يكون قد عرفهم أو عرفوه، فقد خلفت معرفته إياهم تدماً في نفسه، وغيظاً في صدره، وجرع بها الموت أنفاساً، وذلك بإفسادهم عليه رأيه بخذلانهم وعصيانهم حتى ادعت قريش أنه شجاع ولكنه ليس بذئ خبيرة في الحرب، وكيف ذا وهو الذي خاض غمارها شاباً لم يبلغ العشرين وترعرع فيها حتى صار شيخاً في الستين، ولكن حقيقة الأمر وفجواه أنه يأمر فلا يطاع، ويدعو فلا يجاب، ولا رأي لمن كانت هذه حاله.

والخطبة بعد هذا كله تصوير واضح للحال التي صار إليها الإمام علي مع أهل الكوفة ومواقفهم منه منذ أن حل بينهم بعد خلافه مع معاوية الذي استأثر بالشام ثم ما فتئ يضم إليه المصر تلو المصر وهو عاجز عن أن ينهض له التخاذل أصحابه واستمرائهم حياة الدعة والأمن، وهي بجانب هذا تعبير عن إحساس حزن وألم أحسه في نفسه نحوهم وتصوير للمصير الذي انتهى إليه معهم في أخريات أيامه.

ولقد كان الإمام علي واضح التعبير في أسلوبه صادق المعاني يلجأ إلى الحق في تصوير ما يريد، يصف أصحابه في صدق تمويه أو موارد، ويصف حاله كذلك دون التواء أو غموض، تقصر جملة أحياناً وتترادف متابعة لتوضيح الغرض، تكشفه وتجلوه أتم كشف وجلاء، وتطول أحياناً أخرى جرياً وراء

المعنى واقراراه في نفوس متلقي خطبته، وهو في نظم جملة لا يعتمد السجع سبيلاً، وإنما يرسل الكلام ترسيلاً، يوشيه بالمقابلات تارة، وبالخيال تارة أخرى، وبالترادف وتتابع الجمل ذات المعنى الواحد تارة ثالثة، فهو يقابل في فنيه بين جد خصومه في باطلهم، وتهاون أصحابه في حقهم ويطابق في عبارات متتالية (يفار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون ويعصى الله وترضون) وهو ان اعتمد الترسل في خطبته فإنها لم تخل من بعض السجع الذي يجيء عفواً لا قصداً، مثل (يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال، وعقول ربات الحجال) ومثل: (لقد مارستها وما بلغت العشرين، وقد نيفت فيها الستين) والخيال في الخطبة وان جاء قليلاً فقد دل هو الآخر على فنية مقتدرة، انظر الى التصوير بالكناية في موقف أصحابه من قوله فقد قال: (واتخذتموه وراءكم ظهرياً)، كناية عن عدم اهتمامهم بما يقول، واهمالهم لما يجود عليهم به من رأي ونصح.

وانظر الى التصوير الاستعاري في قوله: (ألبسك الله ثوب الذلة)، وقوله (وجرعتوني الموت أنفاساً) لتدرك حقيقة إن الإمام علياً عليه السلام مالك لخاصية اللغة في خطبة قادر على إرسال معانيه في جميع الأحوال والمواقف حتى عد أخطب العرب بعد رسول الله ﷺ.

والخطبة فوق هذا تدل ظاهرة التنقل بين الإيجاز والأطناب التي أشار إليها الدكتور زكي مبارك من ان مسألة الإيجاز والأطناب كانت تجري في الغالب على مقتضى الحال، والخطباء في هذا لا يرجعون إلى قاعدة غير المناسبات التي توجب، فتقضي مرة بالأطناب، وتقضي حيناً بالإيجاز⁽¹⁾، والإمام علي في خطبته هذه نراه يلجأ إلى الإطناب في المعاني التي يريد تأكيدها في نفوس مستمعيه، فهو حين أراد يبين أثر ترك الجهاد فيمن يتركه لجأ إلى تتابع الجمل ذات المعنى الواحد فقال: (ألبسك الله ثوب الذلة وشمله البلاء، وألزمه الصغار، وسيم

(1) النثر الفني في القرن الرابع ج1 ص 68.

الخسف ومنع النصف)، وكلها جمل تؤكد المصير السيئ الذي يلقيه من يرغب عن الجهاد وكذلك لجأ إلى تتابع الجمل ذات المعنى الواحد حين أراد ان يبين حاله من معرفته لأهل الكوفة فقال : (معرفة والله جرت ندماً وورثت صدري غيضاً، وجرعتوني الموت أنفاساً) وهي جمل تتوالى لتؤكد معنى الأسف والحسرة التي أصابت الإمام علي من حال أهل الكوفة في شأن مناهضة أعدائه وخصومه.

إن ظاهرة الإطناب في هذه الخطبة يمكن ان نضيف إليها ظاهرة تنمية الفكرة التي برزت فيما بعد عند كتاب العصر العباسي وخطبائه إذ ترى الإمام عليا حين صور حال النساء في الأنبار وما وقع لهن من رجال سفيان بن عوف، وانصرافهم دون ان يمسوا بسوء فقد نمت من ذلك فكرة تتمثل في قوله لو ان امرأ مسلماً مات أسفاً على ذلك لما كان ملموماً ثم وسع الفكرة بقوله بل كان عندي به جديراً، وكذلك نراه ينمي فكرة فرار أهل الكوفة من الخروج إلى الحرب في الصيف والشتاء فيخرج بنتيجة هي فكرة في حد ذاتها وهي أنهم من السيف أهر⁽¹⁾.

(1) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، ص258.

الكتابة والرسائل

عرف عصر صدر الإسلام نوعاً من الكتابة هو الكتابة الديوانية وعرف أدب الرسائل الذي تميز بميزات الخطابة الإسلامية معنى ومبنى. لقد اثبتت الايات القرآنية ضرورة الاهتمام بالكتابة والاعتناء بها فقد نزلت أول آية على الرسول ﷺ تدعو إلى القراءة والتعلم بالعلم. وقد جعل الإسلام الكتابة في بعض تشريعاته التي تتصل بالمعاملات وتنظيم الحياة المالية بين افراد المجتمع الاسلامي يضاف إلى ذلك عنايته ﷺ بالكتابة والقراءة وحرصه على أن يتعلمها أبناء المسلمين الاوائل كما هو واضح في خبر اسرى قريش في يوم بدر حين أذن الرسول محمد ﷺ لمن لم يستطيع فداء نفسه بمال أو عرض أن يكون فداؤه تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة.

وعندما جاء الإسلام وصار للعرب دولة به حتى نشأ الخط والكتابة ونهضت الرسائل الديوانية كما نهضت منه الرسائل بين الافراد وقد بدأ حينما استخدم الرسول محمد ﷺ الكتابة في شؤون الدين والدولة حيث كان له كتاب متخصصون في الامور الكتابية المختلفة . ومنهم من كان يكتب له ما يعرض من اموره وحوائجه ومن يكتب له بين الناس من المداينات وسائر العقود والمعاملات ومن يكتب له إلى الملوك ويحيب رسائلهم ويترجم باللغات الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ومن كان يكتب له الوحي الذي نزل عليه.

وإن كتب الرسول نوعان: الاول عهوده ومواثيقه التي كان يكتبها للقبائل وغيرهم منها كتاب بين المهاجرين والانصار وعهد صلح الحديبية ، والثاني الكتب الموجهة إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام ، وعرفت السنتان الثامنة والتاسعة من الهجرة بكتابة العهود والمواثيق منها كتاب العهد الموجه إلى ملوك حمير وأسلوب هذه العهود أنها متكونة من ثلاثة اجزاء: مقدمة وموضوع وخاتمة.

واستمر الخلفاء الراشدون بالكتابة فقد أصبحت الكتابة في عهد عمر بن الخطاب (رض) جزءاً أساسياً في أعمار الدولة وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل مارسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالإنظمة في الشعوب المفتوحة. وجاء هذا التطور بسبب اتساع رقعة الدولة وتعدد جبهات القتال في الفتوحات الإسلامية وكثرة القادة والعمار والولاة.

رسالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (١) :

(أما بعد ، ان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أولى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وأس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبينة على من أدمى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالاً أو أحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيت به بالامس فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل ، الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك ما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ . اعرف الامثال والاشباه ، وقس الامور عند ذلك ، ثم اعمده إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة احدا ينتهي إليه فان احضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليك القضاء فان ذلك انقى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر...) .

التحليل :

إن الرسالة تعد دستوراً نفيساً يضع الأسس المتينة التي ينبغي أن يقوم عليها القضاء في الدولة فهي الأصول التي يعتمد عليها القاضي في حكمه وتعطي القضاء مراجعة حكمه الذي قضى به مما يسمى بنقض الحكم (التمييز) الذي يقوم به من وقع عليه الحكم. وتحدد الرسالة مصادر التشريع التي يهتدي القاضي في ضوءها إلى منطوق الحكم وهي كتاب الله وسنة النبي محمد ﷺ فإن لم يجد فيها ما يهتدي به إلى الحكم فعليه أن يجتهد برأيه معتمداً في ذلك على القياس وتضع الرسالة امداً يلتزم به القاضي مع المدعي لاظهار حقه وبينته

(1) تسمى رسالة القضاء.

فإن احضر بينته لحق حكم له به وإلا وجه القضاء عليه وكل ذلك نفى للشك وجلاء للعماية وبلوغ في العذر.

إن هذه الرسالة نص أدبي نثري راق من نصوص عصر صدر الإسلام بينت بلاغة منشئها فقد استهلها بـ (أما بعد) وهي ما تستهل به الرسائل ويؤكد كلامه بالتوكيد ولأنها وصية وتبليغ ترى أنها موجهة مباشرة باستخدام أفعال الامر وشملت حكماً قضائياً ما يزال يعمل به حتى اليوم وهو موقع اليمين والانكار، ووضع شروطاً للمصالحة بين المسلمين ودعا إلى معرفة الأمثال والاشباه لزيادة المعرفة في القياس في الأحكام. في النص روح إسلامية وترى الألفاظ الجديدة التي جاءت في القرآن الكريم: الحق، الباطل، الهداية،... في مواقعها في الرسالة وهي تصب في المعاني الإسلامية لتحقيق غايتها في التوعية والارشاد والالتزام.

